

الدكتور
فخري
الدباغ

في ضمير الزمن
الدكتور فخري الدباغ

دار
الرشيد للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ الجمهورية العراقية

سلسلة دراسات
(٢٣٠)

١٩٨٠

في ضمير الزمن

أحاديث في الإنسان والمجتمع

الدكتور فخري الدباغ

دموع تسيل ودموع تسال

البشر.. كل البشر، ربما لم تتح لهم الفرص.. أو يسعفهم الحظ.. أو « يحل عليهم سوء الطالع » لأن يسافروا خارج قريتهم أو رؤية فيلم سينمائي. أو طائرة جمبو. أو باخرة.. أو التعرض لهزة أرضية أو بركان.. أو فيضان. أو دخول سجن.. أو زواج.. أو.. أو...

لكن البشر.. كل البشر، لم يتمكنوا قط ولو لمرة واحدة في حياتهم ان يحبسوا دموعهم لثوان.. أو دقائق أو شهر.. أو سنوات.

الدموع إذا آصرة تشمل كل البشر وتجمعهم وتساويهم، ملوكاً وأباطرة.... ومساكين وفقراء. ولم تفقد الدموع سحرها ومعناها وتأثيرها رغم أن الكثير منا (وخاصة الاطباء والعلماء) يعرف أنها عبارة عن ماء مذابة فيه مجموعة أملاح تفرزها غدد قريبة من كرة العين لترطيبها وغسلها من الاتربة والاجسام الغريبة وحتى تعقيمها بصورة خفيفة. فالدموع - كالقمر - احتفظت بذكرياتها وتأثيراتها الوجدانية في قلوب البشر رغم وصول المركبات الفضائية إليه ومعرفتنا بأنه صخرة كبيرة جامدة باردة تسبح في الفضاء الكوني.

والدموع تسيل.. وكذلك تُسال.. والدموع تسيل دائما وبصورة بيولوجية طبيعية دون أن يلحظها أحد لأنه لو انقطعت عن الجريان أو انسدت قنواتها لنشأت عن ذلك أمراض مختلفة في العيون والأجفان...

---

* نشرت في مجلة (الجامعة)، جامعة الموصل، العدد ٣، كانون اول ١٩٧٨

والدموع تسيل وتنساب بهدوء غريب عن القلوب المجروحة بالألم... المثقلة بالاكتئاب والشقاء.. المليئة بالهموم والمصائب.. أو الغارقة في حب يائس أو موؤود...

والدموع تسيل أو تنهمر بغزارة أو تتساقط بقطرات وزخات في الصدمات والمآسي... وفي الأفراح والمفاجآت والأخبار المذهلة وعند الوداع والفراق... وعند اللقاء والعناق...

والدموع تسيل في أي وقت وأي مكان... في وهج الشمس.. وظلمة الليل الداكن.. في الأقبية والأزقة والشوارع.. في الكنائس والجوامع.. في الجو وعلى الأرض...

ولو جمعنا ما سال من دموع البشر منذ صرخة الوليد وهو يستنشق أول وجبات الهواء وحتى مماته.. ومنذ ظهور البشرية وحتى الآن لربما أصبحت بطول الأنهار وحجم البحار.. أو بمقدار الأمطار التي هطلت على دنيانا... ولأبحرت الزوارق والمراكب في بحار الدموع تلك...

كذلك فعل (نيرون) الاحمق الطاغية عندما أراد أن يجمع قطرات دموعه وهو يبكي على روما التي أحرقها فما ملأت قعر فنجان لأنها كانت دموعاً كاذبة. أما دموع المساكين والمعذبين في الأرض واللاجئين الفلسطينيين والثائرين فلم يجمعها أحد لأنها كانت تنهمر وتبلل الوسائد والملابس واللُّحى والشوارب والوجنات والشفاه...

تلك هي الدموع التي تسيل: صافية كالمرآة.. نقية كالملائكة حامية كالنار.. حارقة كالقنابل.. حادة كالنصل.. نافذة كالرماح.. مع البكاء.. والنشيج والنحيب.. والعويل... والأنين....

أما الدموع الحبيسة.. الدموع التي لا تسيل.. فأمرها أمرٌ وأدهى. لأنها كلمات غير مسطورة.. وعواطف حبيسة.. وأفكار هائجة.. وبراكين دفينة.. وذرات نوويّة غير متفجرة.. ومطارق قاسية ثقيلة تدق على القلوب والأكباد والأعصاب والأدمغة.

أما الدموع التي تسال، فحكايتها شيء آخر هي نفس الدموع في

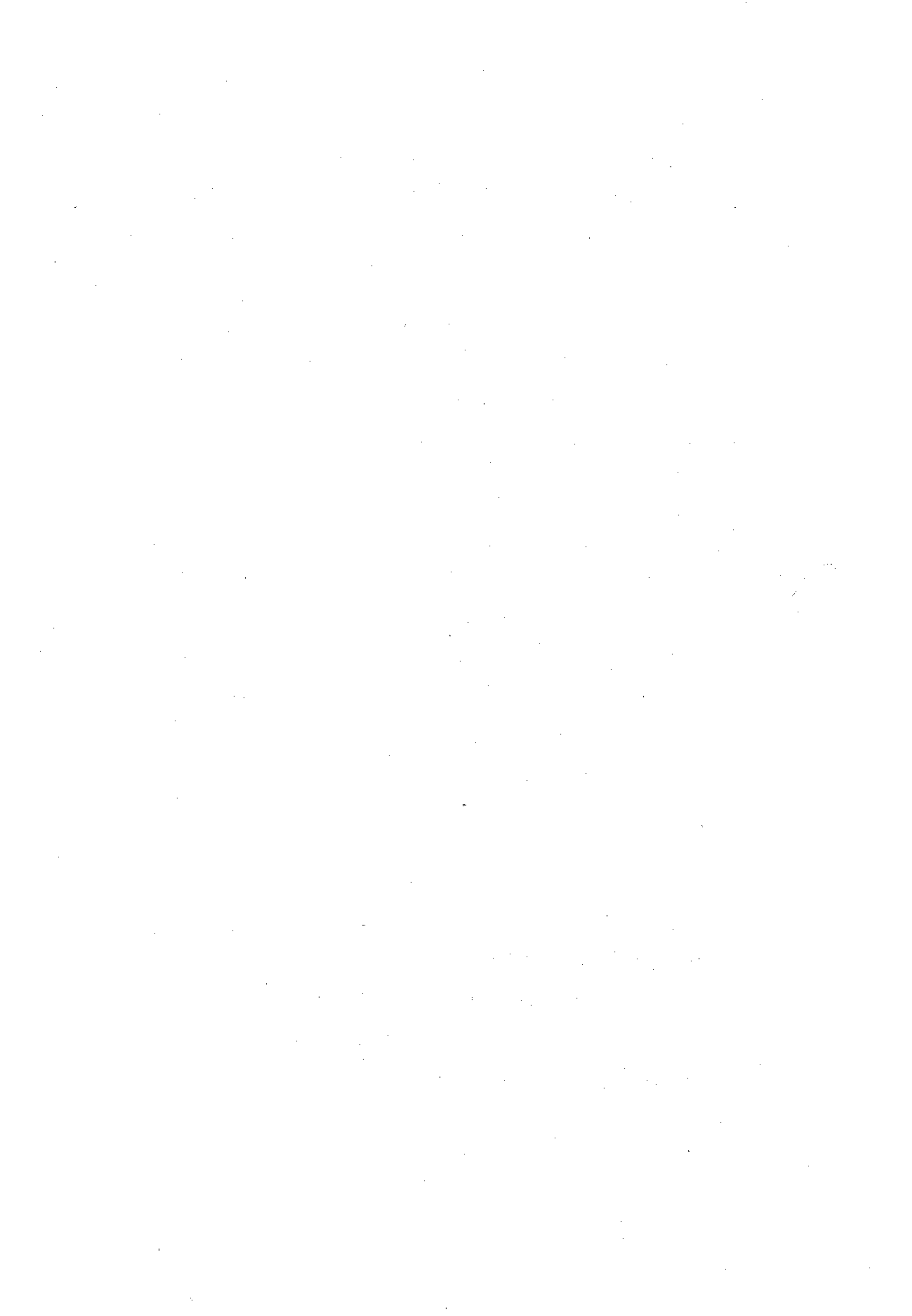
تركيبها.. وقد تكون صافية وغزيرة.. ولكنها باردة جامدة خالية من الوجدان والحدة والحرقة والنفاذ والمعنى والرمز. تلك هي الدموع التي تستخرجها بالقوة والقسر سلطات الاستعمار والدكتاتورية والصهيونية من عيون الجماهير المفتوحة الشاخصة إلى الأمل.. الصارخة بالاستنكار والرفض.. المطالبة بالحرية والعدالة...

تلك هي الدموع التي تسحبها وتمتصها وتدفعها مواد كيميائية «غازية» Lachrymators بتفجير القنابل المسيلة للدموع تلك هي قنابل الطغاة ضد المتظاهرين.. في الأرض المحتلة فلسطين.. وفي نيكاراجوا.. وجنوب افريقيا... وروديسيا وفي كل بقعة ابتليت بحكم رجعي مستسلم خائن...

فكيف تسيل الدموع بهذه القنابل على الرغم من إرادة الإنسان؟ إنها تحوي على غازات كيماوية إذا دخلت العين أحدثت تهيجاً شديداً واحمراراً واحتقاناً وتخريشاً في أغشية العين الخارجية بحيث تضطر الغدد الدمعية على إفراز الدمع كرد فعل للأثر الكيمياوي. ويستمر ذلك عدة دقائق ثم تهمد وترجع الحالة الطبيعية للعين كالسابق. وفي أثناء ذلك يشكو المصاب من تشوش الرؤية فلا يتمكن من التركيز على هدف وبذلك يتشتت ودموعه تسيل رغم إرادته. ومن هذه الغازات الكيميائية نذكر على سبيل المثال (كلور استيوفينون) و(بروموبنزايل سايانيد) و(زاليل بروमايد).. وغيرها كما أن بعضها يؤدي إلى العطاس الشديد.

ولعل الدموع تنافس كلمات الحب والعشق في مقدارها احتلته من مساحات في نتاجات الادباء والشعراء. فهي منسابة بين طيات الشعر وراقدة بين أسطر الكتب والصحف والمجلات في مجموع الأدب العالمي قاطبة. ولعل الآثاريين قد وجدوها منحوتة على صخر منذ غابر العصور..

تلك... هي قصة الدموع... سالت أو سيلت...، ناهيك عن دموع أخرى... كدموع التماسيح... ودموع المنافقين.. ودموع الناسكين... و... و...



الرفض

رفضٌ غايته الإصلاح والبناء..★
ورفض لا غاية له ولا معنى..

القاعدة تقضي أن يهب الانسان ما يملك، لا ما يملكه الآخرون...، والمنطق يتطلب أن يرفض الانسان ما يعتقد أنه ضار أو فاسد أو باطل...

أما أن يعرف الانسان ما يملك، فهي أولى متطلبات الحكمة...، ومن لا يعرف مقدار وماهية ملكاته كان مخلوقاً ساذجاً أو جاهلاً. أما أن يعرف الانسان الضار والفاسد والباطل فهي أدق متطلبات الحكمة. ومن يريد رفض شيء قبل اكتساب حكمة المعرفة تلك، كان أيضاً مخلوقا ساذجاً أو جاهلاً.

أقول هذا، لانني أرى - كما يرى غيري - أن كثيراً من الناس يهبون ما لا يملكون، ويرفضون ما لا يعرفون. وأصبح «الرفض» سلوكاً مرحلياً براقاً كموضة الازياء مثلاً..، وأصبح الرفض مفخرة ولازمة لأعمال قسم من الادباء والشعراء والنقاد وكذلك - وهو الأسوأ والأخطر - في تصرفات بعض الشباب.

الرفض البناء

ولا أريد الادعاء أن الرفض عمل منكر أو مستهجن، لأن أروع الأعمال وأعاظم السير وأخلد الحوادث تكونت من نطفة الرفض ومن طاقاته. الأنبياء رفضوا أوضاعاً فاسدة أو ضارة أو باطلة..، المخترعون والعلماء الرواد رفضوا نظريات جامدة أو ناقصة..، المكتشفون رفضوا العيش ضمن

★ منشورة في مجلة (العربي) الكويتية، العدد ١٦٠، اذار ١٩٧٢

جغرافية محدودة وحياة رتيبة مملة..، مشاهير الكتّاب والأدباء والمجددين في القصة أو الشعر رفضوا بعض الأساليب الوضعية المتكررة الخاملة..، وأخيراً المصلحون في كل مكان رفضوا النظم والسياسات التي كانت تذل الانسان أو تسيء إلى تمتعه بديمقراطية اجتماعية واقتصادية وثقافية. والجميع رفضوا وحاربوا الرياء والدجل في كل شيء.

الرفض إذن هو لب أعاظم! الأفعال، إلا أنه رفض مشروع ومعقول. وشرعية هذا النوع من الرفض أنه ترعرع بفعل عوامل ملحّة، وكان مهضوماً ومدروساً لا اعتباطاً أحمق. وكان يرمي إلى الإصلاح والفائدة الأعم، أو دفع الأذى ومكافحة الشر الخطير. ومعقولية هذا النوع من الرفض أنه أسهم في البناء الحضاري للمجتمع وللعالم.

الرفض الطفولي

إن بعض الأطفال يرفضون الذهاب إلى المدرسة مثلاً، وأصبح هذا النوع من الرفض مرضاً نفسياً يدعى بـ «رفض المدرسة» School Refusal . وللمرض النفسي أسباب ودوافع لا ريب فيها..، وقد تكمن في المدرسة نفسها فتنفّر التلميذ من الاقتراب منها، وقد تكمن في البيت والأسرة التي تجذبه إليها وتعرقل اندفاعه أو مودته نحو المدرسة. ومعظم الدوافع والاسباب يمكن معالجتها بالوسائل النفسية، وينقلب الرفض بالنهاية إلى ألفة وانسجام، ويغدو الرفض المدرسي وأمثاله من الأمراض النفسية للطفولة ظاهرة مرضية تستوجب العطف والرعاية الطبية - النفسانية.

وما يروعنا ويثير اهتمامنا، هو الرفض الطفولي الأرعن، الرفض الذي يمارس علناً وبوعي وإصرار. فرافض المدرسة يستاء من سلوكه ويتعجب لتوجسه واحجامه..، أما الرافض المعاصر فإنه يبارك نفسه، ويتعجب عن توجس وإحجام الآخرين عن مجاملته أو تشجيعه..

الرفض المعاصر المريض

والرافض المعاصر المقصود هو واحد من منتمي الجماعات الجديدة التي أطلقت على نفسها (الهيبز) Hippies والـ(بيتلز) - الخنافس - Beatles

والـ(بيتنكز) Beatnicks والـ(البروفوك) Provoke . وهو ينسلخ ويتبرأ من أسرته ومجتمعه والنظم السائدة فيه لينساق وراء أسرة وجماعة أخرى تتميز باللامبالاة واللاأدبية والممارسات الجنسية الفاضحة والادمان والعنف والاجرام.

يقول « الرافض المعاصر » أنا أرفض التعليم، وأسخر من العلم، ولا أكترث بالأخلاق، وأتحدى النظام السائد المزيف، وأتنكر للعادات والتقاليد البالية، وأحارب الظلم والاستعمار والتفرقة، وأتبرأ من رجعية وجمود آبائي وأجدادي. يقول ذلك، ولا يفعل شيئاً جاداً تجاه ذلك. وهو يرفض التعليم الجامعي لأنه فاشل.. ويسخر من العلم ولا يطعمه بالأخلاق.. وينتقد النظم والتقاليد ولا يقترح كيف يريد أن تتطور وكيف يجب أن تكون..، ويحارب الاستغلال والتفرقة وهو مستلقٍ على أعشاب حديقة أو حقل منعزل وبجانبه فتاته التي تتبعه كالشاة الراكضة وراء خروف.

أفكار مثالية وحلول خيالية.. مبادىء عالية وممارسات دنيا.. اقتراحات مبهجة وأعمال تعيسة. عالم من المتاهة والضياع والتذبذب..، مجتمع من المتراجعين الناكصين..، جزر بشرية تطفو على بحار من الأمجاد والتضحيات القديمة..، وأعجب ما في هذه الجزر البشرية أنها تعوم على أذرع الآباء والأجداد المساكين، وترقد في أحضان الحضارة والحنان التليد..، وتقتات بل وتشحذ من تلك المدنية التي يتنكرون لها. ومنظر الرافض المعاصر وهو يستجدي القروش النزرة من المارة «غير الرافضين» يجسّم ازدواجية وانحلال الرافض المعاصر ويصور هامشية حياته وتطفله على الناس والمدنية التي يدير لها ظهره..، ولكن يمد إليها يده..

الأدب الغاضب

والحديث عن الرفض يجرنا إلى أدب الرفض الذي يضم كتابات لمجموعة من الشباب الغربيين أطلق عليهم «الجيل الغاضب» من الكتاب. وأصبح بعضهم من كتاب « اللامعقول » ومسرح اللامعقول. وهم موزعون بين ألمانية وفرنسا وإنكلترة وأمريكا..، وأحدثَ إنتاجهم صدى مقبولاً لدى القراء، واحتل مكاناً مرموقاً في الأدب المعاصر. وما يجب أن يقال عن هذا النوع

من الأدب أنه لا يمت بصلة أو يتجاوب مع حياة وآمال وأفكار الرافضين الهاربين الآنفي الذكر، كما أن كتابه لا ينتمون إلى تلك الجماعات لا بالهيئة ولا بالمضمون، ولم يؤلفوا فيما بينهم جماعة أو اتحاداً أو اتفاقاً منهجياً، بل إن كتاباتهم تواجدت وتجاوبت بطابع تلقائي عام. ومثل هؤلاء يصح أن يطلق عليهم «الرافضون الهادفون» لما في إنتاجهم من تجديد وبناء ومعنى وعمق. وقد ذكرنا سابقاً أن الأعمال الجيدة لم تكن إلا نوعاً من الرفض المنتج. فغضبهم هو تعبير عن إدراكهم العميق لتناقضات مجتمعهم، وأدبهم ومسرحهم هو صراخهم وتحديهم وتمردهم، ولامعقولهم هو تصوير صادق للامعقولية مجتمعهم. إنهم يتعاملون بشيء جدير بالاهتمام والدرس مقابل ما يرفضون خلافاً للرافضين المعلولين الذين يرفضون ويتعاملون دون مقابل.

الرافضون المقلدون

وهنالك «الرافضون المقلدون» الذين ابتلي بهم مجتمعنا العربي النامي في شتى ميادينه الفكرية والاجتماعية. فمن «شاعر - ناثر» يفهم الرفض كلاماً نابياً مفتقراً للذوق.. أو سليطاً منمقاً غريب التعابير، ومن أديب رافض ينحو نفس المنحى في مقاله أو قصته أو نقده...، ومن شاب مراهق يحاول رفض أي شيء بارتدائه غرائب الازياء أو بارخاء شعره واكتناز قذراته.

هؤلاء الرافضون المقلدون مجموعة من السذج أو الجاهلين الذين لا يعرفون ما يملكون ويرفضون ما لا يعرفون. فلا المطبوعات ولا الافلام السينمائية يمكن ان تجعل الفرد العربي غربياً حقاً إلا في الخيال. والمجتمع الغربي ليس مجرد صورة في صحيفة أو واجهة مخزن تجاري كبير، ولا هو بظاهرة هينة يتمتع بها السائح العابر. الحياة الغربية تجربة عميقة لا يحسها إلا الغربي الأصيل. فالتقليد.. والانتاج غير الاصيل.. والرفض الساذج.. كلها أشياء ممجة ومنفرة وغريبة على المجتمع العربي. وهنا يكمن الداء الذي يجب أن نشخصه ونعالجه على مستويات الفرد والجماعة والدولة.

ولو اعتبرنا ظاهرة الرفض مرضاً نفسياً، لهان علينا الأمر..، ولكن البلية أن الرافضين من هذا النوع يجادلون ويتبارون في النقاش والدفاع

عن انتاجهم أو سلوكهم، ويتذرعون بالحرية الشخصية..، وما أكثر ما للحرية من معاني وتفسيرات..

سيكولوجية الرفض المريض

أقول لو اعتبرنا ظاهرة أو «موضة الرفض» مرضاً نفسياً، لكان الواجب علينا أن نستقصي عن أسبابه، فالظواهر المرضية تنبع من ظروف تبررها ويمكن معالجتها. وقد تكون الاسباب واحدة أو أكثر مما يلي:

١ - الشعور بالفراغ والخواء الفكري والعاطفي. ويعزى ذلك الى ارتخاء الضبط التربوي وإلى الحرمان وتفكك الأسرة وسيطرتها.

٢ - الفشل والخيبة في الحياة العامة.

٣ - الشعور بالنقمة والحقد تجاه الناجحين واللامعين والمشاهير.

٤ - الانفعال العدائي ضد السلطة والآباء الذين يمثلون القانون والنظام والعرف السائد.

٥ - التحدي - بالفعل أو القول - لكل كيان منظم ومنسق.

٦ - الإصابة بأمراض نفسية مزمنة كالقلق والعصاب، والتي تمهد للانحراف نحو الادمان والاجرام وإلى الهرب الاجتماعي.

٧ - عدم الثقة بالذات وبالمواطنة وبالانتماء الطبيعي، مما تدفع بالمرء إلى المحاكاة والتقليد وإلى الاحتماء بالجماعات الشاذة أو العصابات الاجرامية.

٨ - رفض الاحسان ونكران الجميل الذي يقدمه لهم مجتمعهم أو مؤسساتهم الانسانية، كنتيجة حتمية لشعورهم الباطني بالإثم والتقصير. أي أنهم - علاوة على إثمهم - يريدون حفظ ماء وجههم ومواراة خجلهم بالنكران والتهتك..

٩ - انعدام الوازع الديني والاخلاقي الذي يشدّ الفرد الى المجتمع والأسرة، ويحثه على العمل والكفاح.

هل من علاج؟

لعل في قول يوجين يونيسكو - أحد زعماء مسرح اللامعقول - التصوير الدقيق لأوضاع المجتمع الغربي: «المجتمع اللامعقول هو الذي لا غاية له..، وهو المجتمع المنفصل عن جذوره الدينية وتقاليده..، وفيه يكون المرء ضائعاً..، ولا معنى لكل ما يصدر عنه ولا فائدة ترجى منه.»

والرافضون الهاربون الذين تحدثنا عنهم هم الجيل الضائع المنفصل عن جذوره التاريخية والدينية وتقاليده، وما يصدر عنهم لا معنى له بالحقيقة. وفقدان المعنى وغموضه أحياناً هو ما يحاول عرضه وتجسيمه الكتاب الغاضبون أو تمثيله على مسرح اللامعقول. لكن ما الذي يحاول تجسيمه وتصويره الكتاب المقلدون وهم لا يزالون في مجتمع يعيش مرحلة تختلف بكثير عن المجتمع الغربي؟. لقد تسرّع يونيسكو عندما جزم بانعدام الفائدة وفقدان الرجاء...، إذ لو صح ذلك لتلاشت الفروق بين الرافضين التائهين والناس الآخرين، بل لأصبح سلوك الضائعين والمقلدين أقرب إلى الصواب من سلوك الراشدين الملتزمين. وهنا يتجلى الفرق بين اليأس المهزوم من جهة والمتفائل الصامد من جهة أخرى.

إن التجديد والاصلاح، وأبحاث التربية وعلم النفس والاجتماع تحاول بجد وتفاؤل تعديل وتقويم الاوضاع الفاسدة وإزالة التناقضات وإعادة المجتمع الانساني إلى دروب الخير والعدل قبل أن تربكه وتعكر صفوه تلك الجماعات «اللاعاقلة». والجواب على ذلك جاهز في التربية البيتية، في التعاليم الاخلاقية والدينية، في احترام القانون، في الاصالة، في الاعتزاز بالتراث، وفي الانتماء القويم.

أبحاث بالانتظار

قصة «حي بن يقظان» العربية، وزميلتها «روبنسون كروزو» الغربية تصوران بوضوح وبساطة كيف يمكن للانسان ان يبدأ من الصفر وينتهي إلى الآلاف...، كيف يفكر ويتعلم ويبحث وينقب ويكدس المعرفة. وهي قصص للكبار قبل الصغار. ودروس فلسفية عميقة تتطرق إلى معضلات العقل والطبيعة والابتكار والايمان والشك والوجود والعدم..، بل هي سطور مركزة عن كفاح الانسان وتدرج الحضارة.

وهناك «أحياء» كثيرون غير «حي» بن يقظان كرَّسوا وجودهم لحياة منتجة وحافلة، على الرغم من ظروفهم القاحلة ووسائل عصرهم العقيمة ومحيط مجتمعهم المثبطة. وقد ظلوا أحياء بعد مماتهم لما اكتسبوه من شهرة امتدت إلى الاجيال اللاحقة، وحتى يومنا هذا..

كان المحقق والمؤرخ العربي يقطع المسافات الشاسعة، في تقلبات جوية غير رحيمة، وبوسائل نقل بدائية، وكان يمضي جزءاً ثميناً من حياته الزمنية لأجل التأكد من صحة الخبر الفلاني أو الحديث النبوي الشريف أو الحكاية المعينة. كان يتابع المصادر البشرية ليسمعها من أفواهها، وليقدم لنا تأريخاً أكيداً، أو حديثاً «مسنداً»، أو واقعة متواترة حقيقية.

كان العالم والفيلسوف القديم يكتب بيده وعلى ضوء الشمس أو حتى القمر أو فتيلة الزيت المرتعشة، فإذا به وقد أنتج الكتب الضخمة العديدة

---

* نشرت في مجلة (الجامعة) – جامعة الموصل العدد ٥، كانون الاول ١٩٧١

التي لا تثمن. وكان الدارس والمتتبع يضحي براحته وينأى عن أسرته وينفق أمواله ليتقن الموضوع الذي يحبه حتى لو ذهب ماء عينيه أو طقطقت مفاصله أو تيبست أطرافه..

وكان ذلك الكد والدأب الفكري محاطاً بجهال التواضع وجلال القصد.

وكانت فضائل البحاثة الصبر والجلد وعدم التذمر. وكانت عظمة العلماء في استغلالهم لما يتيسر لديهم من وسائل حضارية بسيطة مهما صغرت لاختراع واكتشاف قضايا خطيرة.

عقل أرخميدس استفاد من بضعة غالونات من الماء في حمام متواضعة ليكتشف قانونه الشهير.

وعقل غاليلو استفاد من ثقل وخيط معلق به وبندول يتأرجح يمنة ويسرة.

وعقل ابن سينا استفاد من ظواهر التغيرات الجسمية ليضع يده على أمراض عديدة أو على المسببات النفسية لأغراض مبهمة...

وعقل ابن خلدون استفاد من التاريخ والمجتمع ليقيس الحدث بغير مقاييس من سبقوه...، وقل كذلك عن أديسون، ونيوتن وتفاحته الساقطة من غصنها، وانيشتين ومعادلاته، وأقليدس العريق وهندسته..

وقد ذكرت أولئك الباحثين كمثال على أبحاث خطيرة ولدت في رحم من ظواهر بسيطة عرفت خطورتها ووزنها عقول منقبة، وقلوب متوثبة، وأرواح مخلصة متحمسة، وهذه هي الشروط الأولية الخالدة لكل إنتاج خالد وابتكار ضيّق رائع: النية، والتحفز، والحماس، النية على البحث، والتحفز لاهتباله والتقاطه، والحماس الدائم لتطويره وإنجازه..

و«أحياء» كثيرون غير «حي» بن يقظان يمكن أن يوجدوا بين ظهرانينا، وما أشد حاجتنا إليهم في أوطاننا العربية النامية. ويكفي أن يكون تشوقنا إلى الانعتاق من التخلف حافزاً جليلاً لنا، ويكفي أن يكون وسطنا. الجامعي والثقافي ميداناً فسيحاً لشحذ مواهبنا. فما المانع أن تكون لدينا الأبحاث الأصلية والنتاجات المفيدة؟ إن ما أخشاه أن تكون قد

سيطرت علينا علتان تكفي الواحدة منها لشل البحث العلمي في وسطنا الجامعي.

العلة الأولى: شعور واهم بالعجز والنقص..

والعلة الثانية: تبرير جاهز للفشل والتقاعس..

وكلتا العلتان خطيرتان. فالذخيرة التدريسية الاكاديمية لدينا لا تعوزها الكفاءة العقلية ولا الذهنية ولا الدراية العملية. لكن ما يعوزها حقاً هو الثقة والجرأة والمثابرة. وقد تولد مقارنة أنفسنا مع إمكانات الدول المتقدمة شعوراً لدى البعض بالذل والعجز والذهول، وهو ما يتوجب مكافحته فينا واستئصاله، لأن المقارنة الحضارية يجب أن تثير الغيظ والحماس لا التسليم والتراجع.

هكذا تقدمت الأمم على مر العصور: جاء المغول المتوحشون واكتسحوا البلاد العربية ودمروا، إلا أنهم انغمروا في الحضارة الرحبة وتعلموا من الاسلام الشيء الكثير واعتنقوه، ثم أسهموا في حضارته، وسافر بطرس الأكبر متنكراً الى موانىء أوروبا فتعلم بتواضع أبسط الصناعات ليعود بعدئذٍ قائداً روسياً عبر طفرات حضارية هائلة. وذهب محمد عبده وشوقي وطه حسين - ومن قبلهم أعضاء البعثات العلمية - إلى الغرب، ورجعوا إلى بلادهم ليقيموا الدنيا ويقعدوها. هكذا تتقدم الأمم بالغيرة والحماس والملاحقة. وإذا كان رجال الفكر عندنا قد تعلموا في البلدان المتقدمة وأعجبوا بما تعلموا، ورجعوا إلى رحاب الجامعات والهيئات العلمية الأخرى، فإن ذلك يكفي لإثارة الحماس والغيظ فيهم لا النكوص والجمود أو استدرار الدمع على المراحل الشاسعة التي تفصلنا عنها.

والعلة الثانية أدهى وأمرّ من الأولى، فإن سيكلوجية التبرير والنحيب تطرق الأسماع بين حين وآخر كلما اشتدت الضغوط وتكاثفت الطلبات للاستزادة من البحوث. فقد يعتذر البعض بقلة المصادر أو ضيق الوقت أو تقلب المناخ، أو عدم توفر غرف خاصة، أو قاعات، أو آلات طابعة، أو أجهزة حديثة جداً، أو مرسلات لاسلكية داخلية، أو سكرتارية ومساعدين ونواب مساعدين، أو بانعدام الهدوء، أو.. أو.. ولم ينتظر باحث قديم أو

معاصر حريص وجود أجهزة معقدة ولا سكرتيراً، ولا إنارة بالنيون، ولا غرفة ذات مواصفات خاصة، ولا مكتبات متكاملة عامرة لكي يتم ما أتم. مسكين ذلك الباحث القديم، لم يتذمر ولم يتأوه وهو يقرأ ويسجل على ضوء الشمعة الشاحب، ويفكر أمام موقد، موقد يبعث الدخان الكثيف، ويتنقل على ظهر دابة حرون.

أنا لا أجادل وأماحك في أن بعض الأبحاث تستلزم وجود وسائل عصرية وتكنية حديثة. أو أن الوسط المريح يهيء الفرص للبحث الأجود، ولكنني أقول: إن كنوزاً من مواد البحث الخام متوفرة لدينا «تنتظر» من يقدم عليها، وبأدنى الشروط. ومعذرة إذا تقدمت باقتراحات لبحوث بسيطة: جولة في المدارس، إحصائيات عن أسباب الطلاق والافتراق، دراسات عن اتجاهات الشباب، رواد المكتبات من هم؟.. السجناء من المجرمين الاعتياديين من أية طبقات ومناطق ومهن؟... وما عقلياتهم وثقافتهم؟... عمال المصانع مم يتألفون؟... اتجاهات الهجرة من الريف إلى المدن وبالعكس، دراسة انثروبولوجية لقرية أو عشيرة، معدل طول الفرد العراقي، ومقياس جمجمته، هل للتدخين علاقة بالعادات الشعبية؟... الادمان: هل هو معضلة عندنا؟... سر انحراف مجرى دجلة في المنطقة الفلانية، الأرقام التاريخية ما درجة صحتها؟ «يقال مثلاً: قتل في المعركة الفلانية عشرون ألف محارب.. ويقال إن الملك الفلاني أنعم على الشاعر الفلاني بألف ألف درهم..» تحقيق مخطوطات متراكمة في مكتبات الأوقاف، هل صحيح أن المرض الفلاني غير موجود في بلادنا..؟ دراسات في اللغات المحلية، الأمثال الشعبية وعلاقتها بالحراك الاجتماعي، النصائح الصحية القديمة هل جميعها خاطئة..؟ اختبار واحد للذكاء، وأخيراً، وعلى الاقل: ترجمة أمينه لكتب عالمية حديثة يمكن أن تسد فراغاً في المكتبة العربية، وتضاهي عشرات البحوث المقتبسة المقدمة لمجرد الحصول على ترفيع إلى درجة علمية.

إن ما يدحض كل حجة ودفاع لدينا هي جهود المستشرقين ومعاناتهم مثلاً في سبيل إنجاز أبحاث عنا نحن العرب والمسلمين. وليس من الضروري أن يكون لدينا أحدث جهاز يظهر في أمريكا لكي نثبت مقدرتنا وإنتاجنا،

إن الأجهزة التي تستعملها إنكلتره في معاهدها ومستشفياتها ومؤسساتها «وقد رأيناها بأنفسنا» قديمة بالية، إلا أن القائمين عليها يعتزون بها ويستغلونها ويجابهون بها معضلاتهم، ويقارعون حججهم العلمية بغيرها بثقة وفخر.

والمذياع القديم الضخم البشع المنظر لا يزال يقوم بنفس أغراض راديو «الترانسيستور» الصغير الرشيق مثلاً. العبرة، إذن، ليست في الجهاز الحديث بل في استخدامنا للجهاز القديم في الوقت المناسب. وإذا ما حظينا بجهاز حديث اقتضى الواجب العلمي والضمير الوطني أن نبادر إلى استعماله لا إلى استعراضه أو خزنه.

أبحاث كثيرة وبسيطة يمكن أن تنجز إذا جعلنا النقد الذاتي مبدأ منصفا بين أنفسنا ومجتمعنا. والإنصاف يقتضي أن لا يتجاوز النقد إلى حد التثبيط والتحطيم لامكاناتنا، وأن لا يتراجع وينكمش إلى حدود الاستكانة والخمول والهامشية. النقد الذاتي الصحيح يدعونا إلى نبذ الترف الفكري والطلبات التعجيزية المدللة، كما يدعونا إلى استنفار ما لدينا والاكتفاء بما يتيسر لنا. ولا عيب في تقشف وكفاح، بل العيب في البذخ والبطر. والإنصاف يقتضينا أن نسلم ونعترف بأن أنظمة الجامعات العراقية تقدمية سمحة وإمكاناتها المادية محترمة، وتخطيطاتها وتشجيعاتها لذوي الكفاءات مفتوحة، وأنها - بالاختصار - فتحت أبواب البحث، ولا تزال بالانتظار. ولكل زرع حصاد، والحياة أخذ وعطاء.

أبحاث كثيرة بالانتظار، وأبحاث كثيرة يمكن إنجازها دون سكرتاريين ودون أدمغة وحسابات ألكترونية. ولكنها لن تنجز بالنحيب واختلاق المعاذير، ولن تنجز بالشعور بالعجز والتبعية، بل يمكن أن تنجز وتصبح نصباً حياً ملموساً إذا بقيت أفئدتنا شابة، وعقولنا متحفزة، ونياتنا صادقة،.

إن المعجزات تأتي من أقل الطلبات. والبحث الأصيل الواحد هو معجزة في نظري إذا ظهر دون جلبة وجعجعة. ونتج عن مواد أولية بسيطة، وكان «بعرق الجبين» وبكفاح الصابر الدؤوب، وليكن «حي بن يقظان» وغيره من الموتى «الاحياء» الآنفي الذكر رمزاً أبدياً لنا.



الأبيض والأسود

«الأبيض.. والأسود» عنوان يصلح أن يتوج عدة مواضيع. وفي الاختبارات النفسية التي يستخدمها الطبيب النفساني لاستبار شخصية مريضه والاطلاع على درجة معرفته وتتبعه لما يجري في محيطه يطرح عليه أسئلة مختلفة لهذه الغاية. فإذا ما أراد أن يعرف مكنون انفعالاته وماهية اتجاهاته أيضاً قدم له صورة أو شكلاً معيناً وسأله «ماذا يعني هذا الشكل بالنسبة لك»؟ ويكون الموضوع الذي يختاره الفرد ومضمون الشرح يرشد أن المحلل إلى ما يتطلع إليه من استكشافات نفسية. و«الأبيض والأسود» عنوان يمكن أن نفتتح به عدة مقالات:

نستطيع مثلاً أن نتحدث فيه عن سواد الشعر الفاحم عندما ينحدر متاوجاً على وجه ناصع البياض.. أو عن جمال البدر الساطع وهو يسبح في ديجور الظلام.. أو عن الخال الأسود وهو يلتصق سعيداً بالخد الاسيل ولا ينفك عنه ولا يحيد.

ونستطيع أن تتحدث فيه عن السوق السوداء.. أو عن العناكب السود والصفر والبيض، وعن الصحف السوداء والصحف الوطنية البيضاء أو عن الكتب السود التي تحكي فظائع التاريخ والكتب البيضاء التي تتحدث عن أعمال تبيض وجه التاريخ والانسانية.

ونستطيع أن نتحدث أيضاً عن مزايا التلفاز والافلام البيض والسود

★ نشرت في مجلة (الاقلام) العراقية، العدد ١١، تموز ١٩٦٨

ومقارنتها بالملونة.. أو عن قصة تحاكي قصة (الأحمر والأسود) للكاتب (ستندال).. وعن.. وعن.. وعن..

لكن، التزامات الإنسان نحو إنسانيته وكرامته، وارتباط البشر بالحرية والعدالة تحتم علينا أن نختار موضوعاً واحداً للأبيض والأسود ألا وهو موضوع التمييز العنصري الخبيث الذي يجري في بقع عديدة من الأرض: الولايات المتحدة الامريكية، جنوب افريقيا، روديسيا، انكلترا.. الخ.

ولسنا بصدد إعادة ما تتحدث عنه الصحف العالمية عن الاستبداد الأبيض والظلم الذي يجري في تلك الاماكن. ولسنا بصدد الاشادة بمواقف السود التحررية أو ذكر أسماء لوامعهم في مختلف ميادين الأدب والسياسة والرياضة. إنما أود دعوة القارىء الكريم إلى جولة بيولوجية - طبية - اجتماعية في عالم السواد والبياض البشري لعل فيها متعة ثقافية وتغذية إنسانية فكرية، وأدلة علمية أخرى على بطلان التمييز العنصري.

معالم بيض.. وسود..

وقبل الشروع في جولتنا هذه، لا بد أن نمر سريعاً - وبقفزات - على علائم في الطريق الشاق الطويل الذي قطعته الانسانية مع السود والبيض الى يومنا هذا.

إن عمر الإنسانية يقدر بحوالي نصف مليون سنة. وقد نشأ الانسان من عائلة أو فصيلة واحدة وجميع صفاته البيولوجية مرسومة ومخزونة في (الجينات والكروموسومات) ومشتركة بين الجميع ولا تقتصر على عنصر واحد. والنظرية العلمية السائدة بين علماء الحياة والاجناس والسلالات البشرية ان حكم المناخ والموقع والبيئة جعلت قسماً من الصفات تتجمع لدى عنصر وتقل عند آخر، فهو تكيف للمحيط ودفاع عن النفس ضد الظروف الخارجية.. وهو بقاء الأصلح.. فالبيض يقاومون أكثر في المناطق الباردة والبعيدة عن خط الاستواء، والسود يقاومون بكفاءة أكثر في المناطق الحارة المشمسة.

وهكذا.. وعلى مر آلاف السنين ومئاتها نشأت الاختلافات الظاهرية في ألوان الجلد وحجم الشفاه ونوعية الشعر مما سنأتي على ذكره بعدئذ بالتفصيل. تلك حقيقة علمية نقدمها الى من لا يقتنعون بأدلة جاهزة قدمتها الاديان السماوية مثلا عن سواسية البشر.. وعن الاصل الواحد.. وعن سام وحام..

والرق قديم جدا.. وهو رذيلة الانسان الكبرى. لكن تجارة الرقيق الاسود بدأت في القرن الخامس عشر، واشتد أوارها وحمى وطيسها في القرنين السادس عشر والسابع عشر.. وتبدأ القصة كما يقال في عهد الامير البرتغالي (هنري) الملقب بـ«البحار» وكان ضابطه المدعو (انتام جونكالفز) يستطلع سواحل افريقيا الاطلنطية سنة ١٤٤٢م.. وهنالك القى القبض على عدد من المراكشيين. ولكن الامير هنري حثه وأصر على ارجاعهم الى وطنهم افريقيا. فلما أعادهم بادلوهم بعشرة زنوج وكمية من تراب الذهب. ومنذ ذلك الحين استيقظ شيطان الجشع في رواد البحار، وسال لعابهم على البشر الاسود المسكين. وتبعت اسبانيا البرتغاليين.. ثم جاء دور الأمريكيين..

وكلمة (زنجي) Negro مشتقة من الكلمة اللاتينية Nigger بمعنى (اسود). لكنها لم تطلق على عنصر الزنوج إلا بعد أن راجت تجارة الرقيق واستعملها الاسبان - البرتغال لهذه الغاية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

وأصبح مألوفا في الولايات المتحدة الامريكية عندما تدفق المئات من الزنوج المخطوفين من بين أحضان قارتهم وعشيرتهم، أصبح مألوفا ان تقرأ الاعلان التالي:

للـبيـع

على ظهر السفينة (بانك ايلاند)، في يوم الثلاثاء الموافق ٦ مايس القادم مجموعة منتقاة من ٢٠٥٠ زنوج أصحاء وصلوا توا من شواطيء (رايس).

ملحوظة: لقد اتخذت الاحتياطات الكفيلة بوقايتهم من الجدري.

التوقيع

(ارستن، لورنز، آبل لي)

ولسنا بصدد ذكر تطورات ثورة الزنوج في امريكا وسلسلة البواكير التحررية في القارة السوداء، لكننا نكتفي بذكر ثائر زنجي قاد مقاومة عنيدة ومعارك تحررية بطولية ضد الرق والعبودية في الولايات المتحدة في أوائل القرن التاسع عشر.. ذلك هو (نات تيرنر) الذي لم يقض على ثورته الا تحشدات من ٣ آلاف مسلح أبيض سنة ١٨٣١ م.

في دنيا الفسلجة والطب..

ان لون البشرة عند الانسان وبعض الحيوانات يعتمد على وجود صبغة سوداء تسمى بـ(الميلانين) melanin وهي موجودة بكميات مختلفة لدى السود والبيض على السواء. لكن نسبتها عند الزنوج أكثر مما هي عند البيض. ومهما بلغ اسوداد الانسان فان صبغة الميلانين التي يحملها لو جمعت ووزنت لما تجاوزت الغرام الواحد في الفرد الواحد - أي بمقدار ملعقة الشاي الصغيرة.. ومنذ الشهر الثالث للجنين تتوزع الصبغة السوداء في الانسان الى انحاء الجسم المعينة لها.. وفي البرمائيات والمائيات في ضمن خلايا خاصة تدعى حاملات الميلانين melanophores كما هو الحال في الضفدعة مثلا. وتوجد الخلايا التي فيها الميلانين في الانسان تحت الجلد وفي الشعر وقزحية العين وجدار كرة العين وفي بعض أجزاء الدماغ والجهاز العصبي.

ويتم تركيب الميلانين في الجسم من أكسدة حوامض بروتينية تؤخذ كجزء من الطعام الذي نتناوله وبمساعدة انزيمات خاصة تحتوي على عنصر النحاس. والحامض الاميني الذي يصنع منه الميلانين هو التايروسين tyrosine أما الانزيم الداخل في عملية التحويل فهو التايروسينيز وذلك كما هو موضح في المعادلة ادناه.

يتاكسد الى

تايروسين ⟵ ميلانين

(بمساعدة الانزيم تايروسينيز)

ومن هذه العملية «الكيا - عضوية» نستطيع تفسير وفهم معظم الاضطرابات التي تؤدي الى ابيضاض أو اسوداد الجلد.

ويتحكم في توزيع الميلانين في خلايا البشرة مجموعة من (الهورمونات)

أهمها افرازات الغدة النخامية الخلفية والأمامية، كذلك تتأثر بافرازات الغدة الدرقية والكظرية. ويوجد هورمون آخر تفرزه الغدة أو الجسم الصنوبري في الدماغ يؤدي عكس مفعول الغدة النخامية - أي الى تخفيف صبغة البشرة. ومفعول الهورمون هذا لا يزال محوطا باسرار وغوامض وتدور حوله نظريات عن علاقته بمرض الفصام (الشيزوفرينيا).

ويغمق ويسمر الجلد بصورة فسلجية طبيعية عند التعرض لأشعة الشمس المحرقة والاشعة البنفسجية. كما هي الحال في المناطق الحارة والاستوائية. وعلى العموم تزداد الصبغة السوداء في الجلد بزيادة كمية الانزيم (تايروسينيز) وترتبط تلك الزيادة كما ذكرنا بافرازات الغدد الصماء في الجسم. ويزداد توزيع الصبغة السوداء عند النساء الحوامل بصورة طبيعية حول حلمة الثديين وفي الطيّات الجلدية وعلى جدار البطن وتحت العينين.

وفي عالم الحيوان..

ويوجد في الحيوانات البرمائية هورمون خاص تفرزه الغدة النخامية الخلفية ويؤثر في تمدد وتقلص وانتشار الميلانين في الخلايا الجلدية. فاذا ماانتشرت الصبغة في اطراف الخلية ظهر الحيوان (الضفدعة مثلا) غامق اللون، وإذا ما تقلصت وتجمعت الصبغة حول النواة في مركز الخلية ظهر نفس الحيوان فاتح اللون دون اجراء أية زيادة في كمية الصبغة وبذلك يحاكي الضفدع لون المحيط ويقوم بعملية «كاموفلاج» فسلجية دفاعا عن النفس.. وتلون الحرباء مضرب الامثال على سرعة تغيير لونها وتقلبها.

وتستطيع بعض الحيوانات ان تصنع الميلانين بكميات كبيرة للاستفادة منها في الاختفاء عن أنظار العدو كما هو الحال في الحيوان البحري المسمى بـ«الحجار».والحصان الاملح والابيض أكثر تعرضا للاصابة بالسرطان الاسود من الحصان الاسود أو داكن اللون.. بل انه من المسلم به ان الحصان الابيض إذا عمر طويلا فإنه من المحتمل جدا ان يموت بورم السرطان الاسود. ومن طرائف هذا المرض تدور الاقاصيص عن فلاح استخرج الصبغة السوداء من حصانه الاملح الميت وتمكن ان يصبغ به سياج حديقته بأكمله..

هل توجد فروق كثيرة بين السود والبيض؟

قلنا ان العلم الحديث لم يثبت نشوء السود والبيض من فصائل مختلفة.. بل ان التطور والبيئة ابرزت بعض الفروق دون ان تقتصر صفة ما ١٠٠٪ على احدهما. ولنذكر بعض الفروق بين الشقر والسمر والصفر والسود من البشر.

أولاً - من صفات السود البيولوجية - الفسلجية (عدا لون البشرة) هي:

١ - الشعر القصير الملفوف.
٢ - غلظة الشفاه.
٣ - عدم ظهور الضرس الثالث والأخير في غالبيتهم (بينما ينمو في غالبية الهنود الحمر الامريكيين).
٤ - عظام السود أشد كثافة من عظام البيض.
٥ - تقل بينهم فصيلة الدم (آر. ايج.) السالبة - RH وتكثر فصيلة الدم (ب) وجميع الفصائل الأخرى.
٦ - توجد مادة كيمياوية تدعى اختصارا PTC يكون مذاقها حلوا بالنسبة لبعض الناس ولا مذاق لها البتة لدى البعض الآخر. وقد وجد بأن غالبية السود والهنود الأمريكيين يتذوقها حلوة ما عدا ٥٪ منهم.
٧ - وبسبب اختلاف الصفات الموروثة والجينات فان مقاومة السود لبعض الامراض والمناخ تختلف عن البيض، كما سنأتي على ذكره أيضاً.
٨ - يوجد في السود اضطراب وشذوذ في أشكال خلايا الكريات الحمراء للدم وفي بعض انواع الهيموغلوبين.
٩ - يتحمل الزنوج الحرارة والرطوبة لكنهم ينهارون في البرد الشديد.
١٠ - لم تثبت الادعاءات النازية الهتلرية عن أفضلية شعب أو جنس على آخر في الذكاء والقابلية.. وما يلاحظ في السود من تأخر انما مرجعه الى الاحوال الاقتصادية السيئة وعدم تكافؤ الفرص أمامهم.

ثانياً - ومن صفات البيض (عدا لون الجلد):

١ - استعدادهم لسقوط الشعر المبكر والصلع.

٢ - كثافة عظامهم أقل نسبيا من السود.

٣ - فصيلة الدم (آر. ايج.) السالبة كثيرة بينهم وتبلغ الـ١٥٪ من السكان. أما فصيلة الدم (ب) فهي قليلة بينهم لكنها الغالبة في الآسيويين.

٤ - حامض (بيتا امينو آيزو بوتيريك تاسيد) BAIB يفرز في البول، في جميع الناس، لكن افرازه في البيض والسود قليل جدا، بينما تكثر نسبته لدى الاسيويين وهنود امريكا.

٥ - ثلاثون بالمائة من البيض لا يتذوقون الـPTC وأربعون بالمئة من هنود الشرق لا يتذوقونها كذلك.

٦ - لا يتحمل البيض الحرارة والرطوبة، وينهارون في الاجواء الحارة، بينما يتحملون البرد القارص.

امراض السواد.. وأمراض البياض

لعله يصح التعميم القائل ان امراض البياض أكثر وأشد من أمراض السواد.. فهنالك مرض البهق Vitiligo الذي يمتاز بظهور بقع بيضاء متفرقة في انحاء الجسم أو في موضع الأنداب والجروح. وفي بقع البهق تقل أو تختفي صبغة الميلانـين. وهو مرض وراثي يهاجم المساحات المكشوفة من الجسم كالوجه حول فتحة الفم واليدين والابطين وحول حلمة الثدي أو حول العينين.

ويصاب بالبقع البيضاء أحياناً من كان عنده اضطراب في الهورمونات الأخرى، كمرض التسمم بالغدة الدرقية أو فقر الدم الخبيث أو هبوط في نشاط الغدة الكظرية (فوق الكلية).

والفرد الامهق (أو الابرص) albino يمتاز بفقدان الميلانين أو قلتها بدرجة شديدة في جسمه بحيث تغدو بشرته ناصعة البياض ومشربة بالحمرة وشعره أبيض (أشيب) كالقطن. ولفقدان الصبغة السوداء من عين الابرص فانه يصبح ضعيف البصر وغير قادر على الرؤية في الاضواء الساطعة أو

ضوء النهار.. فيصاب بالرأرأة أو إهتزاز كرة العينين. ويتسبب مرض البرص albinism هذا عن نقص وراثي في انزيم التايروسينيز. وتقل صبغة الميلانين في مرض النقص العقلي المسمى (فينايل كيتون يوريا) بسبب اضطراب في انزيمات أخرى تؤثر على الحامض البروتيني (الانين).

أما أمراض السواد فهي: احتمال تحول خلايا الميلانين الى تكاثر سرطاني خبيث سريع الانتشار جداً والاجهاز على حياة المريض. لكن الورم السرطاني الاسود يوجد في البيض والسود على السواء، ولعل نسبته بين البيض أكثر مما هي عليه بين السود. ويحتوي الورم الاسود على كميات كبيرة من الصبغة. وقد استخرج مرة ٣٠٠ غرام من الصبغة من كبد أحد المصابين.

ولا علاقة لأمراض السرطان بالعنصر، بل لعله يتعلق بعوامل اقتصادية - اجتماعية فسرطان المعدة يكثر بين سكان جزيرة آيسلندة مثلا، وسرطان الكبد بين قبائل (بانتو) الافريقية - وربما لسوء التغذية يد في الموضوع. على أن سرطان الميلانين أو (الميلانوما) نادر ويشكل حوالي ١٪ من أنواع السرطان الأخرى. وتفرز صبغة الميلانين أحياناً في البول وتجعله داكناً أسمر - أسود. ويحدث ذلك في أثناء انتشار سرطان الميلانين في الجسم.

وفي مرض (اديسون) الناتج عن اخفاق في افرازات الغدة الكظرية يزداد لون الجسم اسمراراً بسبب قلة في هورمون (الهيدرو كورتيزون) الذي يحفز عادة الغدة النخامية لكي تفرز هورمون الميلانين.

كذلك تزداد صبغة الميلانين في أورام الغدة النخامية لكي تفرز هورمون الميلانين. وعند التسمم ببعض المواد الكيمياوية والعقاقير كالزرنيخ ومادة (امينوبيتروبين) اللذين يؤديان الى اسمرار الجلد. وينقلب لون البشرة رماديا إذا نقص فيتامين (بانتوثنيك أسيد).

ولوحظ مؤخراً ان كثرة استعمال بعض العقاقير المهدئة ولمدة طويلة مثل (اللارجاكتيل وعائلته) تؤدي الى إسمرار الجلد وظهور بقع داكنة على الوجه والجذع. وربما يرجع ذلك الى تأثير هورموني عن طريق الغدة النخامية. وتستعمل مادة الـ(بنسيلامين) لخفض وتقليل مفعول الاسوداد هذا.

وبسبب الاختلاف في توزيع الجينات عند السود، فان مقاومتهم لبعض الامراض تضمحل لذلك فهم يصابون بالسل الرئوي وباضطراب في شكل الكريات الحمر وبفقر الدم المنجلي (نسبة الى شكل الكريات الحمر المنجلية).

وأخيراً...

فهل وجدنا بعد جولتنا العلمية هذه ما يستوجب استعباد الابيض للاسود..؟، وهل نجد تبريراً للتمييز العنصري إلا كونه جزءا لا يتجزأ من الاستعمار الامبريالي..؟، ألا يعدّ وصمة على جبين البيض وبرهانا دامغا على التناقض والمأساة والازمة التي يمر بها الضمير الانساني؟.

وبينما نجد الانسان قد خدش وجه الزهرة بمركباته الفضائية.. وتكاد انفاسه تداعب المريخ.. وأيديه (الآلية) تمسك بالقمر...، بينما هو يتصاعد ويسمو من ناحية، إذا به لا يعرف معاني الاخلاق والعطف والمساواة. وثورات الزنوج في أي مكان ليست مجرد حرب على التمييز العنصري...، بل هي ثورات ترتبط بمعاني الثورات الأخرى من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية.

عن السحر والشيطان

من المعاناة.... إلى التقليمات

قالوا عنه عصر الظلام، وكان مظلما حقاً.. بأفكاره ومعتقداته وحضارته. وكان ذلك بعد سقوط الامبراطورية الرومانية، وفي اوروبا بالذات، بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر الميلادي تقريباً. أما الشرق العربي.. والغرب الاندلسي فكانا في دنيا مشرقة أخرى من علم وأدب.. وفن وفلسفة واعمار.

في عصر الظلام ذاك... مرت البشرية بأحلك أدوارها وادعاها للأسى. فقد العقل بصيرته.. وتملكه الرعب.. ولفه الابهام.. وتحدّته معميات كبيرة..

لم يعرف أسباب أكثر الامراض، فقال: انها رجس من عمل الشيطان أو لعنة الالهة الغاضبة. لم يدرك العلاقات السببية بين ظاهرة طبيعية وأخرى فقال: انها من فعل قوى غامضة جبارة. لم يبق عنده رمق خلقي أو إنساني فراح يستجدي فتات الفساد والماديات. لم يؤمن بشيء ايماناً متفتحاً مطمئناً، فتملكه فزع قاتل ووحدة باردة قارسة.

وبين الغربة والجهل.. وبين الخوف والمرض، فقد الانسان الاوروبي توازنه واتزانه، ولم يعرف الطريق. ولما أراد له رجل الدين الهداية، ظن أنها لن تحل قبل جلاء كل بصيص من علم وبحث. وهكذا تصور الانسان الهلع البائس: ان ايمانه بالله يعني محاربته لنور العلم وتنكره لدور العقل والمنطق.

---

* نشرت في مجلة (الجامعة) - جامعة الموصل العدد ١١، آذار ١٩٧٣.

فلما تخلى عن العلم، أصبح يعيش قشعريرة عاتية من المتاهة، وعذاباً حائراً في عالم المجاهيل والصمت. ولم يستطع ان يجمع بين الايمان والعلم... ولم يدرك المرشدون له ان العلم يمهد للايمان.. وان الايمان لا يتعارض مع العلم.

كان انساناً في درك البؤس والألم والمقاساة. ولم يكن له من مفر أو ملجأ إلا التمسك بالغيبيات والاحلام. وبتكاتف تلقائي من قوى لا شعورية ومحاولات حثيثة عجولة للحصول على الاجوبة الشافية، ظهر السحر.. وانتشرت الخرافة وتكاثر الدجل والتنجيم.

وكان ذاك تطوراً منطقياً وطبيعياً. فالخرافة لا تتقيد بقوانين العلوم الطبيعية... والسحر لا يتقيد بواقع او ببشر.. والدجل لا يعرف ديناً غير الكسب الحرام والانانية، هذا التطور الطبيعي للأمور يتضح في تاريخ اوروبا في عصور الظلام واوائل النهضة... اتضح في جنون الرقص.. في الهستيريا الجماعية.. في الرعب من الموت الاسود - وهو الطاعون -.. في عبادة الشيطان أو الخوف منه.. في تعذيب ذوي الامراض العقلية.. في تربية الجن.. في الاعتقاد بالساحرات، ثم مطاردتهن وقتلهن بالعشرات... في اضطهاد العلماء والاطباء.. في حرق الكفرة.. في محاكم التفتيش.. في.. في..

وكان ذلك عصراً مليئاً بالالام والمآسي ووضاعة التفكير البشري الجاهل. ولكنه كان يرتغد بمخاوفه ويئن من آلامه، ويلهث من تفكيره العقيم.. كان كل عمل حقيقة اصيلة دون تمثيل وافتعال. وكانت كل بادرة عذاباً قاتماً لا متعة فيه ولا تسلية. وكانت الاصالة مع المعاناة مسجلة على القلوب، ومحفورة على الصخور. ومنقوشة على الجدران والسجلات في تلك الحضارة وحتى ما قبل ظهور الاديان السماوية..

فماذا يحدث الان في النصف الثاني من القرن العشرين...؟؟. الانسان الاوروبي الحديث «وعلى الاخص الامريكي»، يتشفى الان بالانسان الاوروبي المسكين الذي عاش تلك العصور المخيفة. انه يتشفى ويتهكم بعقلية جدوده عندما يعيد تمثيل تلك المواقف الحياتية بالطريقة التي يهواها. وهذه

هي «تقليعة» - عبادة الشيطان، و«كنائس» الجن، واتباع السحرة، والغيبيات في عصرنا هذا.

الرقص المجنون في شوارع المدن المكتئبة. تحول الى رقص خليع لذيذ في مجاميع وصالات خاصة. ظلام الافكار والقلوب.. تحول الى ظلام اصطناعي بين الأروقة والزوايا..

حمرة الخجل والعجز والدماء البريئة.. تحولت الى اضوية حمراء شهوانية والسنة لهب كيمياوي في مذابح الشهوات.

التعذيب والسجن والصراخ الطفلي... تحول الى رياضة جسمية وزعيق النشوة العارمة. المحاكمات والمآسي في القلاع الرهيبة.. تحولت الى تمثيليات طقوسية مستهترة في كنائس خفيفة...

الحرمان والفقر والمرض والجنون.. تحول الى ملابس جاهزة، واقنعة تنكرية وقروناً للشيطان تباع في محلات خاصة، أو تؤجر كما تؤجر كراسي الحفلات..

وهذا هو ما يجري الان في اوروبا وامريكا المتحضرة بين تلك المجاميع والزمر من الشباب والكهول الذين يعبدون الشيطان، ويمارسون طقوس السحر والتعاويذ. أسسوا لهم «كنيسة الشيطان» منذ عام ١٩٦٦ في سان فرنسيسكو...، وأصبح واحد منهم «كاهنا» شيطانيا لها ومعه «صاحبته» الكاهنة الحلوة. وتجري العبادة باسلوب خاص وطقوس مبتكرة طريفة: الموسيقى الصاخبة.. الاضوية المعتمة.. النيران الملتهبة.. الملابس الشيطانية.. الاصباغ والمساحيق الصارخة، الاقنعة وقرون الشيطان المخيفة.. ورئيس الكهنة الذي يشبه رئيس الجن «ساتان».، أما الصلاة فهي حركات اقرب الى الجنس من أي شيء آخر.. ولا ريب في ذلك اذا ما وجدنا نصف العرايا والعرايا.. واللمس والعصر.. والسجود والركوع للاجساد الجائعة وللملكات الجن الشبقات تحت ضوء القمر.. وبدون قمر..!! ولكي تكتسب العبادة صفة خاصة وهيئة جدية، تكون العضوية بشروط، وتطبع «الاناجيل» الخاصة بالدين الجديد، وتوزع الكتب المختلفة في المكتبات العامة..، وينتخب الكاهن انتخاباً كنائسياً...، ويتحمس صحفيون

وكتاب للكتابة عن هذا الموضوع. أما في المكتبات العامة، فقد اختفت عشرات الرفوف ومئات الكتب التاريخية والادبية والفلسفية، وحلت محلها كتب السحر والتنجيم والتعاويذ والارواح والشياطين!!.

يقول انجيلهم الشيطاني: «من ضربك على خدك الايسر..، فالكمه على خده الايمن». ومن جراء الطقوس، في عالم المجهول.. ماتت شابة من التعذيب وفي غمرة السحر والتنجيم والشهوات طعنت واحدة صديقها ٤٦ طعنة سكين. ولما حكم عليها بالسجن سبع سنوات رددت شكرها للشيطان لان الحكم كان خفيفا بحقها.. انها تقلد زميلتها احدى خليلات لويس الرابع عشر التي مارست السحر مع راهب فاسد الخلق. وكانت تضحي بطفل حي من باريس في كل حفلة شيطانية من اجل استرجاع الملك الضائع.

والمنتمون لكنيسة الشيطان لا يجدون غضاضة في السرقة والادمان والقتل والدعارة..، بل انها من جملة طقوسهم.. فاين هذا الموقف المستهتر من مواقف اجدادهم المساكين...!؟ انهم الان يتكلمون ويمارسون طقوسهم من مواقف القوة والعلم والاطمئنان وخيرات المدنية الحديثة. كل واحد من اذكياء وزعماء تلك الزمر والعصابات يعرف القراءة والكتابة.. ويعرف تركيب الجسم ومنشأ الامراض.. وقوى الطبيعة.. وما هو العلم.. واين تقع الارض في هذا الكون الهائل وكيف تدور..، ويعرف ان الجن والشيطان والمارد العظيم، ومصباح علاء الدين، وبلورة الساحر الكبير، وطلاسم المنجمين خرافات واوهام لم تظهر أو تجرأ ان تظهر في القرن العشرين..، ولكنهم مع ذلك يمارسونها بحجج وادعاءات وتبريرات واهية..!!

يقولون مثلا: انهم يمارسون السحر كوسيلة للتناسق والتجسيد الجديد.. ويدعون انهم من خلال تلك الطقوس يشعرون بالقوة والحرية وتأكيد الذات وتحقيق الرغبات ومعرفة الغيب. ويصرخون: ان اجلال الشيطان هو تعظيم وتأليه للانسان.

ذلك ما يدعون... أما الحقيقة، فان ما ارتكبه السحرة والمنجمون من اغلاط وجرائم يفوق مئات المرات ما نجحوا فيه احياناً من كشف الخبايا أو التنبؤ بالغيب. وبحساب الصدفة وحساب الاستنتاج، نجد ان نجاحهم يعادل

اي مجهود للانسان ذكي مطلع استخدم عقله في التكهن بدلا من دجله.

واذا ما درسناهم بنظر علم النفس والاجتماع، وجدنا انهم جماعة تريد تحقيق رغبات وغرائز دفينة عارمة بطريق مباشر باسم السحر والشيطان. فالمغامر بينهم هو الذكي المحتال الذي يتمتع بصاحبته، ويلعب دور الكاهن والقائد. والاخرون مضطربو العقل.. متشردون.. اغبياء.. منحرفون، يعيشون على بقايا مائدة العصر، ويتمتعون بحرية مجتمعهم وتسامحه. وقد وجد احد علماء النفس الاجتماعي: ان كثيراً من اعضاء هذه الزمر مصابون بـذهـان عصـابي وتفكـير مريـض، وان اذكيـاءهم يستغلونهم و« يغسلون ادمغتهم » كما ويخدعونهم ويغرونهم باللذة والجريمة والادمان. ولقد ضمت عصابة « مانسون » الشهيرة مجموعة من هؤلاء القتلة الذين كانوا يمارسون حرية جنسية في كهوف طبيعية. ترى..، هل ان السحر وعبادة الشيطان وممارسة الغيبيات والطقوس الشهوانية هي عقائد فلسفية جادة ترمي الى معرفة الحقيقة، او اعلاء شأن الانسان حقاً..؟. ليس ما يدل على ذلك..! إذ كل ما فعلته تلك الزمر أنها وجدت مادة تاريخية جاهزة، فتبنت مظاهرها، وراحت تمثل ما جرى في العصور الغابرة.

وشتان بين الاثنين: بين المعاناة الحقيقية، والسعي الصادق وراء المجهول، وبين التقليعات واللهو والتفسخ. ان السعي الحقيقي وراء المجهول عمل نبيل وحضاري..، وهو قائم على قدم وساق: في المختبرات العلمية.. في ابحاث الفلك.. في المعابد المقدسة.. في عقول الفلاسفة.. في قلوب المؤمنين والمتصوفين.. في مؤتمرات علم النفس والاجتماع. والانسان المخلص لانسانيته - ودنياه وآخرته - هو من يؤيد كل هذه المحاولات الجادة الرزينة للسعي وراء المجهول والحقيقة. لكن زمر اليوم اختلست ارواح الماضي!! نبشت القبور.. زورت الحوادث.. لبست الاقنعة ولم تكتو بجروح الضحايا من الاجداد. فما اتفه زمر اليوم.. وما ارذلها..!!

ولنا ان نتساءل بحذر، ولكن باصرار: هل ان زمر الشيطان اليوم تلهو حقاً؟..، أم أن اذكياءها عملاء متنكرون.. وانبياء كذابون، يدعون الى تدهور الحضارة ودفن الاخلاق.. ويبشرون بنحر المبادىء من اجل غايات بعيدة ماكرة..؟

لنا ان نتساءل، هل أن زمر السحر اليوم وكلاء للصهيونية العالمية مثلا، والتي يهمها خراب الانسانية والاديان..؟. ثم، لنا ان نتساءل ايضاً، هل ان زمر الشيطان اليوم حلقة من تلك الحلقات التي تغمر اسواقنا الفكرية: كافلام الجنس والاغراء.. وافلام جيمس بوند.. ومسرحيات «هير» والعرايا.. وفلسفة «الهيبيز»؟؟..

قبل ان ننحي باللائمة على الحضارة الغربية، ونتهمها بأنها هي السبب، علينا ان نفتش عن الايدي الخفية التي تريد تحطيم الحضارة الغربية ذاتها.. والمسيحية.. والاسلام.. والمبادىء والاخلاق..، وتدعو الى الطوفان.. والى النهاية السحيقة..

في القدوة والاقتداء والقيادة

لم يغفل اي مذهب اخلاقي او عقيدة او دين منذ اقدم العصور التأكيد على اهمية القدوة في التربية والتعليم والقيادة والتوجيه..

وكانت الاديان السماوية تدعو الى الاقتداء بالكبار والمصلحين والصالحين والاولياء والانبياء لان تطوير المجتمع وعقل الانسان ونفسية البشر ترتكز اولا على حسن اداء القادة وحسن التزام التابعين والمهتدين من ملايين البشر..

وخير ما نستشهد به من كتاب الله الاية الكريمة القرآنية «وانّا على آثارهم مقتدون..»

الاقتداء في علم النفس الحديث

.. وبظهور علم النفس الحديث في اواسط القرن التاسع عشر، واتباعه الاسلوب العلمي في البحث، اكد اهمية القيادة (او القدوة) والاقتداء مما لا يعتبر ابتكارا منه، لولا انه اضاف الى الحقائق القديمة تحليلا وتفسيرا لعملية الاقتداء. فعلم النفس الحديث اذن لم يأت بشيء جديد عدا اجتهاداته في كيفية حدوث تلك العمليات في العقل والوجدان. فقال فرويد ان الطفل المولود حديثا مشحون بغرائز الحياة العديدة (جزء الشخصية الذي اطلق عليه الهو). وهي التي تصطدم بواقع الحياة القاسي الصلب فيتعلم الانسان تدريجيا في طفولته وينضج ليعرف الخير والشر والممنوع والمسموح (وهو جزء

★ نشرت في مجلة (الشعب) عن مجلس الشعب في الموصل، العدد ١، ١٩٧٨.

الشخصية الذي اطلق عليه الانا). ومن خلال ذلك، وباتصال الفرد بالمجتمع والمدرسة يتلقن تدريجيا المعاني السامية والمثل والتقاليد والعادات والنظم والشرائع.. فيتكون لديه ذلك الجزء من الشخصية (الذي اطلق عليها فرويد الانا الأعلى) وهي التي تمثل ضمير الانسان ومثله وطموحاته.

واكد فرويد على عملية المماثلة والاقتداء لدى الاطفال، فالطفل يأخذ بخلائق والديه ويحذو حذوهم ويقتبس منهم ليعيد ما اقتبسه بشكل افعال مشابهة. وكثيرا ما نجد الطفل يضارع ابيه في معاملة الغير ويتزيّا بزيه ويقتفي اثره..

وبملاحظتنا للاطفال وهم يلعبون على سجيتهم كيف يمثلون ادوار غيرهم من الكبار فهذا الزوج وهذه الزوجة وتلك الاخت وهذه الام وذلك الجد..، بل ان بعضهم يدخن السيكارة ويرتدي ملابس احد الابوين ويحاكي اسلوبهم في الكلام والمشي والاكل والشراب..

ونظريات علم النفس الاخرى لا تنكر ما قاله فرويد، ولكنها تأتي بتفاسير اخرى لايضاح عملية الاقتداء. فالعالم الروسي الشهير (بافلوف) يؤكد نظريته في كيفية اكتساب الانسان بعض العادات - او قل اغلبها - عن طريق التكرار ورؤية مشاهد ودخول تجارب حياتية تجعله يفهم العادة الجيدة المقبولة من العادة السيئة او المكروهة - فتنطبع في خلايا دماغه تلك العادات التي تلقي الترحيب والتأييد من الآخرين - ومن الظروف -. ومعنى ذلك ان الابوين والاساتذة الكبار «يعلمون» النشيء الجديد السبل التي يرغبونها هم، فيغرسون العادات والمثل التي تناسبهم.. وبذلك تتم عملية غير مباشرة من الاقتداء التدريجي..

علم النفس الاجتماعي

وعلم النفس الاجتماعي الذي هو من ابرز فروع علوم النفس المعاصرة، يتناول هذه الظاهرة بتوسع وعمق.. ويحلل كيف تؤثر الظروف الاجتماعية والمحيطية في البيت والمجتمع على سلوك الانسان. فملابسنا اصبحت ظاهرة اجتماعية وليست ظاهرة بيولوجية (حياتية) للوقاية من تقلبات الجو فقط،

فالملابس الان زينة ومظهر وعرض جمالي وسمة طبقية ومهنية...، وطعامنا اصبح ظاهرة اجتماعية وليس حياتية لمجرد العيش لانه يدخل السرور واللذة الى القلوب كما يرمز الى مركز اجتماعي ومهني.. الخ..

وملامحنا: من شعور وذقون اصبحت ظاهرة اجتماعية ايضا ترمز الى عدة اشياء: من مهنة او عقيدة او فلسفة في الحياة. وانتاجنا الادبي والفني أصبح ظاهرة اجتماعية وليس تاريخية فقط.. لان الادب والفن يعبران عن ردود فعل الانسان تجاه الحياة..

ولكن...

..في عصرنا هذا.. وفي النصف الثاني من القرن العشرين على الخصوص، وبعد ان قفزت المواصلات والاتصالات طفرات مذهلة..، وبعد ان اصبحت الاقمار الصناعية تنقل الاحداث في لحظتها من نصف الكرة الارضية الى النصف الاخر -، بعد كل هذا اصبح الانسان خارج حدود البيت والمجتمع والقطر، وتفتحت اذهانه وحواسه الى ما يجري في مجتمعات بعيدة عنه وغريبة عليه. فاصبح فريسة الغزو النفسي - الاجتماعي - الفكري.. وفقدت روح الاقتداء الاصيلة المحلية وخصوصيتها، فاذا بالفرد العربي مثلا يتطلع بدهشة او بذهول او بإعجاب الى الفرد الامريكي او الانكليزي او السويدي، ويحاول تقليده.. بل يكافح لمضاهاته ومضارعته في فنه وشعره وزيه وملبسه ومأكله ومسلكه...

والتقليد شيء، والاستفادة والانتقاء شيء آخر بالطبع. ولكن الذي حدث ان السمات الاصلية للفرد العربي اصبحت مهددة بسبب فقدان او ضعف قابلية الفرز والانتقاء، وبسبب الفيض الهائل من المعلومات والدعاية والنشر. وهنا يكمُن سر توجيه قيادتنا السياسية الحكيمة حول مسائل قد يظنها الفرد الساذج انها طفيفة وغير مهمة.

حوار سهل واقناع صعب

كثيرا ما سألني الشباب والطلبة عن مدى اهمية الشعر الطويل مثلا...، وكثيرا ما تصوروا انهم يحرجونني بقولهم ان الفدائي الفلسطيني شعره طويل

ولحيته كثة، وان الفيلسوف الفلاني شعره طويل، وان المتصوفة والاولياء والخلفاء في غابر العصور كانوا ذوي شعور مسترسلة ولحى محترمة.. وكنت ابتسم واخاطبهم بلغة علم النفس والاجتماع والسياسة واقول لهم:

..في القديم، كان الملبس والمظهر يرمزان الى شيء محدود ومعروف في ذلك المجتمع. فاللحية الموقرة والشعر الطويل يدلان على صاحبها ومهنته وشخصيته دون جهد..

اما الان، فاننا لو رأينا عن بعد انسانا ذا شعر طويل ولحية موقرة فهل بأمكاننا تشخيص ذاتيته..؟ وهل هو فنان؟ ام فيلسوف؟ ام مجنون او عربيد؟؟ ام متخنث، ام قذر متسول؟؟ ام محارب آشوري؟. ان الحضارة الغربية الان بحريتها الليبرالية الفوضوية حطمت القيم والمعاني وخلطت الحابل بالنابل.. وجعلت من زي الذكر كالانثى ومن زي الانثى كالذكر.. وغمرت الامبيريالية والصهيونية الاسواق بالافلام الفاضحة والصور الداعرة.. والعقاقير المخدرة.. والملابس المضحكة فلم يعد هناك ضوابط ومقاييس....

ولهذه الاسباب ركزت توجيهات المربيّن على مدى خطورة تربية الجهل الجديد واعداده وتوجيهه في الخط الصحيح. فالشعر الطويل المخنث ربما يبدو وكأنه وسامة وجاذبية في الرجل، لكنه يؤثر في سلوك الانسان بصورة غير مباشرة..

ان الطفل الذي يهديه والداه بزة رعاة البقر (الكاوبوي) ومعها الحزام والمسدس الصغير لا بد ان يحاول تمثيل دور القاتل الكاوبوي الذي يراه في الافلام. ولا بأس في ذلك في حدود اللعب فقط. لكن هذا المثال دليل صارخ على ان الملبس قد اكتسب قوة التأثير في سلوك الانسان بحيث يضطره الى اداء (دور) تلك الملابس. كذلك الشاب الذي يرسل شعره ويشد بنطلونه الضيق من خصره... ويفتح ازرار قميصه لتبدو شعرات صدره وعليها احدى القلادات المعروفة،،. ذلك الشاب لا بد ان تساوره افكاره وتراوده رغباته ان يقوم بدور العاشق او المغامر او الـ(جيمس بوند) او.... الخ.

وينطبق هذا على تطبيق الزي الموحد في الجامعات ومدى فائدته في التأثير على سلوك الطالب الجامعي.

اذن، فان حجة ومبررات الشعر الطويل تصبح واهية لكونه اصبح عاملا مؤثرا في سلوكية الفرد وطموحاته.

من هذا المنطلق ليس الا.. نجد ان التقليد والمحاكاة هي من امراض العصر.. ومن هذا المنطلق نرى وندرك نبل وعمق النداء الذي توجهه القيادة التربوية الحكيمة الى الجيل الناشيء حول الاهتمام بالتراث والاصالة والابتكار والاستقلالية والشخصية القومية والعزيمة.. ومن هذا المنطلق وهذه النظرة الشمولية يجب ان نؤمن ان المسألة ليست مجرد شعر طويل او قصير بل انها تمتد الى المعنى الاعمق وهو مكافحة التقليد والوقوف بوجه التخريب الاخلاقي والثقافي لجيل امتنا العربية.

الرّواية العلمية العربية..

هل هي معدومة...؟

القصة والرواية العلمية احدى الوان الادب ذات المواصفات المعينة والمضامين الخاصة. وان كانت تخضع الى كل ما في القصص من اسس الشكل والمضمون والحبك والاسلوب والحكاية والخاتمة. والرواية العلمية هي من نتاج تحولات القرن العشرين الفكرية بعد ان فتح العلم مجالات واسعة للبحث والتكهن والخيال، اذ ساعدت الاكتشافات العلمية والتكنولوجيا على التحليق في اجواء الخيال العلمي، كما اضاف الفن السينمائي حافزا جديدا على تجسيد احلام الروائيين. ولا يعني ذلك انعدام القصة العلمية في قرون ماضية، اذ وجدت محاولات نادرة كرواية (الحلم) التي كتبها العالم الرياضي الالماني (كبلر) عن الصعود الى الفضاء الخارجي وذلك في القرن السابع عشر.

ولا يمكن حصر الرواية العلمية في علم معين لان الطب والكيمياء والفيزياء وعلم الفلك والالكترونيات والذرة، وعلم النفس وعلم الانسان (الانثروبولوجيا) كانت جميعها مواد دسمة للرواية العلمية. ويبدو ان معظم كتاب الرواية العلمية هم من العلماء والادباء، اذ ان دراستهم الاولية للعلوم او تفكيرهم العلمي وتتبعهم ساعدهم على تأليف الرواية العلمية. واول ما يتبادر الى ذهن المثقف في هذا الباب روايات الكاتب الانكليزي (هـ. ج. ويلز) الذي كتب في التاريخ والف روايات خيالية قريبة من الحقيقة مثل (طعام الآلهة) و(الرجل الخفي) التي تعتمد على فرضية علمية شديدة الاحتمال وهي اختفاء الاجسام عن رؤية الآخرين بطلائها بمادة معينة

- نشرت في مجلة (الجامعة)، لجامعة الموصل، العدد ٧، نيسان ١٩٧٦.

«كيمياوية» او «سحرية» اذا نظرنا اليها بمنظار «الف ليلة وليلة» او «مصباح علاء الدين».. اما الكاتب الانكليزي الشهير الثاني فهو (الدوس هكسلي) الذي كتب في مسائل علمية ونفسية كثيرة من خلال رواياته، واشهرها (العالم الطريف) حيث يتناول فيها مسائل التناسل والزواج وحبوب منع الحمل والتلقيح الصناعي والطعام الذري المركز ومستقبل الاخلاق والمجتمع البشري...

اما الروايات التي تنتجها شركات السينما والتلفاز عن (طرزان) الفضاء وحروب الاجرام السماوية ومغامرات الانسان الآلي... الخ، فهي عديدة ولا حصر لها. ولست بصدد مناقشة مضامين هذه الروايات المختلفة فمنها الواقعية الرصينة المسلحة بالمنطق العلمي.. ومنها الخيالية الطائشة المدفوعة بقصد التجارة الرخيصة والتسلية السريعة...

لكنني بصدد مقالة لفتت نظري وظهرت في جريدة الثورة العراقية بتاريخ ١٩٧٥/٧/١٠ بعنوان (لماذا لم تظهر الرواية العلمية في الادب العربي؟) بقلم امير اسكندر. وقد استعرض فيها بقلم متمكن وثقافة عيمقة موضوع الرواية العلمية وابعادها ومراميها المتعددة. ولكنه قطع مقالته فجأة دون الحديث عن الرواية العربية التي هي عنوان مقالته بالذات. وحيث انه لم يدلل على عدم وجود رواية علمية عربية، كما لم يذكر أية محاولات فيها على الاقل فاني اريد هنا - انصافا للادب العربي - ان اذكر على الاقل ان الرواية العلمية العربية موجودة وان كانت ليست بالاتساع والشمول الذي نفهمه...

وفي رأيي ان استخدام الحقائق العلمية في نسج الرواية يكفي لأن نعتبرها رواية علمية، اما اشتراط «الفانتازيا» العلمية او الخيال والتنبوء فهو شرط متزمت في ظروف تحولاتنا الحضارية للدول النامية. فالتطبيق والالتزام يحتم على الاديب والكاتب ان يقدم غذاء فكريا قد اعدّ في مطعم علمي او دخلت في تركيبه حقيقة علمية.

والمثال الجاهز امامي هي روايات الكاتب المصري (مصطفى محمود) الطبيب الذي هجر الطب في العيادة ولم يهجره في الادب والصحافة. فقد

انتج بضعة روايات علمية فيها الخيال الواسع والتكهن الجريء: كـ(العنكبوت)، و(الافيون) و(رجل تحت الصفر) و(الخروج من التابوت).
ثم ها هي كتاباته عن الروح والايمان والفلك والخلق، وتنطلق كلها من مادة علمية درسها في الكلية والجامعة واكملها في جولاته ورحلاته وقراءاته العلمية. وفي رواية (الافيون) وجدت ابدع وادق وصف لعلمية التحول من العقل الى الجنون تحت تأثير الافيون، واوردت هذا الوصف في دروس ومحاضرات علم النفس مع طلابي في كلية الطب لدقته وبراعته..

كيف اذن يمكننا ان ننكر وجود الرواية العلمية في الادب العربي؟ - ان الرواية العلمية كصياغة الذهب.. سباكة وريازة وفن، وفيها نسب مختلفة من الذهب الصافي والمعادن.

وقد تختلف نسبة الذهب (وقراريطه) في المصوغة الواحدة، كما تختلف نسبة الحقيقة العلمية في المادة الادبية. وصدقوني ان جمال الصياغة ليست في «النسب» بل في شكلها النهائي واضفائها الوجه الجمالي المطلوب، او العنصر التطبيقي والتوجيهي المنشود. ولا احسب ان مصطفى محمود هو الكاتب الاوحد في القصص العلمية لان بالامكان اعتبار بعض قصص يوسف ادريس «علمية» ايضا. ولا اريد ان اناقش اهداف الرواية العلمية العربية. فالكلمة والحقيقة العلمية يمكن ان يستخدمها الكاتب القدير في دعم مبادئه واتجاهاته الفكرية بطريقة فنية، كالنار التي يمكن ان تدمر او تصقل...، ولكن مجرد وجود المادة العلمية كاحد اركان الرواية يكفي لاعتبارها رواية علمية - في نظري على الاقل - والا اصبحت الرواية العلمية فصلا من كتاب علمي موضوع بشكل روائي.

واعود فاقول ان الرواية العلمية موجودة في الادب العربي، وان من واجبنا تشجيعها لان دورها حساس وحيوي في هذه المرحلة من التحولات الاجتماعية السريعة. فالاهداف تتحقق باشكال متعددة حتى لو كانت ممزوجة بالخيال او التسلية الظاهرية.

الحماة .. المــرأة الخالدة

لكل ميدان في الحياة فارسة، ولكل مضمار «جنديه المجهول». وللفرسان والأبطال والجنود نصب وتواريخ، إلا فارسا واحد وجندياً مجهولاً لم يخصص له التاريخ صفحة قيمة، ولم يحفل به الفنانون ليرسموا له لوحة أو رمزاً أو يؤلفوا فيه لحناً أو أغنية..، ولم تتظافر جهود ذوي العلاقة لإقامة نصب متواضع له..، ذلك هو «الحماة» الخالدة!

والحماة الخالدة رغم كل ذلك الصّد والتجاهل، إذ أنها أقامت لنفسها نصباً في أكباد الأسر البشرية، وخاضت ميادين فصيحة من أعصاب معظم الادمغة الزوجية، وسجلت لشخصيتها بطولات في التاريخ الانساني سطرته على صفحات أثيرية تتسرب في كل البيوتات ومن كل المنافذ!

ومن عجب أيضاً أن تختلق الحضارات العريقة آلهة نسوية عديدة ترمز الى كثير من مظاهر حيواتها، وتحيطها بهالات من التقديس أو الحب أو الرحبة، فهذه آلهة الحب وتلك آلهة للخصب وهاته آلهة الليل والغيرة، وهؤلاء آلهة للامومة Mother Goddess . وأصبحت أسماء بعض تلك الآلهة الانثوية معروفة للمثقف المعاصر كأسماء ممثلات هوليود الشهيرات، مثل: (عشتروت) السريانية..، و(اشتارت) Astarte السومرية، وافروديت ومنيرفا الاغريقيتين..، والآلهة الأم (شاكتي) Shakti الهندوسية.. الخ. إلا أننا لا نجد ذكراً أو أثراً لالهة للحماة، ربما لسبب بسيط هو أن الحماة أم وأنثى قبل كل شيء، أو أنها لم تكن تشغل بال القدماء.

---

* نشرت في مجلة (التراث الشعبي) العراقية العدد الاول، ايلول ١٩٧١.

الحماة في اللغة

ليس لي حظ وفير في الاطلاع على أسرار اشتقاقات اللغة العربية، ولا أدري لماذا دعيت والدة الزوج أو والدة الزوجة بكلمة «الحماة» لا غيرها دون مرادف آخر أو بديل. وجمعها «حموات». ويبدو أن والد الزوج كان أكثر نفوذا وأهمية للأسرة العربية القديمة إذ تجد في المعاجم اصطلاحات: الحمو، والحم، والحما، للتعبير عن والد الزوج أو أحد أقربائه المقربين ممن هو في مقام الأب. أما الحماة فلم يذكرها القاموس المحيط مثلاً، كأنه لم يكن وجود ذي بال للحماة في المجتمع العربي القديم.

ومن الطريف أن نستعرض بعض الاشتقاقات والكلمات العربية القريبة من كلمة الحماة:

فالحماة (أيضاً): تعني عضلة الساق.
والحمأة: هي الطين الأسود المنتن.
والحماة: (أيضاً) نوع من النباتات.
والحمام: هو الموت.
وحامى: محاماة: دافع عن...
وأحمى المكان: جعله حمى لا يقرب.
والحمى: حرارة المرضى.
والحميم: القريب.
والحمة: السم أو الإبرة التي تلدغ بها العقرب.

وفي اللغة الانكليزية يطلق على الحماة اصطلاح **Mother – in – Law** وترجمتها الحرفية (الام – بحكم – القانون). في اللغة الاغريقية تدعى **Socrus** . ويطلق على النبات القصي المسمى باللاتينية **Sansevieria** اسم (نبات الحماة). **Mother–in–Law plant** أو «نبات الأفعى» **Snake plant** ، وذلك لاحتوائه على ألياف قوية!.

وأترك لهوى القارىء الكريم اختيار المعاني القريبة إلى كلمة الحماة. وقد يكون اختياره شاقاً، لأننا لا بد واجدين من يجاهر بأن الحماة يمكن أن تكون حامية ومحامية أو كالحمى أو الطين الأسود، كالنبات القوي الالياف

الذي يضيق الخناق على رقاب الازواج، أو سامة كالعقارب، أو حميمة عطوفة كأصدق الاصدقاء، أو كالأم المثالية الغزيرة الوجدان الدافقة الحنان.

«وظائف» الحماة وإساءاتها:

وما تقوم به الحماة من أفعال، وما تتفوه به من أقوال في دائرة الاسرة هو موضع اهتمام وقلق ودراسة ذوي العلاقة وعلماء النفس والاجتماع. ووظيفة الحماة هي التي جعلتها مدار البحث والشكوى - والمديح أحياناً - في مجتمعاتنا الشرقية.

والملاحظ اننا لا نعثر على ذلك الأثر السيء الخطير أو المتواتر الحدوث في الغرب، فكأن دور الحماة أشد وقعاً وأوسع مدى في المجتمعات الشرقية منه في المجتمعات الغربية. ولعل مرد ذلك الى الارتباطات العائلية الاوثق في الشرق، وإلى اشتراك أفراد العائلة المتزوجين في سكنى دار واحدة أو دور متقاربة (في حارة أو محلة أو حتة)، أو في قرية أو مدينة صغيرة، أو لان الحماة تعيش عادة مع ابنها المتزوج وهو المسؤول عن اعالتها اجتماعياً واخلاقياً ودينياً. وبهذا القرب، يتم الاحتكاك الذي لا محيد عنه، فينشأ التوتر والشد والبسط بين أفراد الأسرة الواحدة.

فما هي وظائف الحماة التي تؤديها منذ ظهور الخليقة حتى يومنا هذا؟ إنها تجمع بين الوظائف الانشائية البناءة والأعمال التخريبية المنغصة الهادمة. ولما كانت اعمالها السيئة هي موضع اهتمام الناس، فسنبدأ بها تاركين محاسنها إلى موضع آخر من المقال. وأدرج ادناه ملخصاً لما يكرره المتذمرون من أعمال الحماة المكروهة:

تتدخل فيما لا يعنيها، تثرثر أو تضيف المزيد إلى ثرثرة الزوجة، تقف في أحد طرفي النزاع الزوجي وتزيد احتدام الشجار، لا تعرف كيف تقوم بدور وسيط السلام لأنها لا تدرك معنى الوسط والانصاف، تفسد ابنتها بالتدليل أو ترهق الزوج بالصرف أو المشاركة أو بتشويش مشاريع الترفيه والتوفير أو كيفية قضاء الاجازات والاستجمام.. تثير الفتن وتزور الاقاويل، تتسلى بالغيبة على ذوي القربى، تؤدي دور الرقيب والبوليس السري والحكم

والسجان بكل مهارة وإخلاص، تفرض وجودها وسيطرتها على الاسرة، تفرق بين زوج ابنتها وزوجة ابنها، وتميز بين أطفال ابنتها وأطفال ابنها، تتعرض عند الحاجة وتتأوه دون ألم وتشكو دون سبب، تثير الغيرة بين الازواج، ويلذ لها مشاهدة الجدل والعراك، تعطف على الاحقاد وتحقد على التعاطف، تعذب الزوجة وتحرق أعصاب الزوج، تحب الانتقام وتخلق لها الحساد والأعداء الوهميين.. الخ... الخ من شتى الخصل والافعال والنعوت التي تتردد على أفواه الازواج والزوجات. وهكذا احتلت الحماة أدواراً من القصص المأسوية او الافلام السينمائية، ومساحات من الصور الكاريكاتورية لمجلاتنا العربية خاصة والشرقية عامة تعج كلها بالسخرية والنقد والشماتة!.

العوامل النفسية في سلوك الحماة:

لا يمكن تفسير سلوك الحماة دون اللجوء إلى علم النفس. ومن بين جميع المدارس الحديثة لعلم النفس نجد أن أقربها إلى فهم نفسية الحماة هي نظرية فرويد في الجنس والخضوع العاطفي للفرد. والسبب بسيط جداً لأن الحماة أنثى قبل كل شيء الحماة هي «الأم» السابقة.. وهي «الزوجة» التي سبقتها، وهي الابنة «الفتاة» قبل زواجها.. وهي (المراهقة)، وهي الصبية والطفلة والرضيعة قبل عقود خلت. فنفسية الحماة إذن خليط ومحصلة لكل التجارب العاطفية والعقد النفسية التي انتابت الطفلة والابنة البالغة والزوجة والأم. ولا يمكن أن تتصرف الحماة الحاضرة بمعزل عن تاريخها النفسي الطويل.

ومن الاطالة استعادة نظرية فرويد الجنسية في هذا المجال، إننا نكتفي بمسها مساً خفيفاً وإبراز النواحي الحساسة التي تهمنا فيها. وما تورده نظرية فرويد بهذا الخصوص هو أن الانسان الطفل أول ما يستمد سعادته ولذته عن طريق الرضاعة من ثدي أمه، إذ يشعر بالاطمئنان والدفء والشبع، وهذه هي «اللذة الفموية».

لأنها تأتي عن طريق الفم. واللغة والعطف يبذران الحب والميل إلى مصدرها، وهكذا تحب الطفلة (والطفل أيضاً) أمها قبل كل شيء. ثم يبرز دور الأب في الميدان العاطفي عندما تكبر، ويتوزع الحب بين الأم والأب.

وحيث أن الأب «ينافس» الابن في التمتع بعطف واهتمام والدته، فانه يكره والده ويحب أمه، وهذا أبسط ما في «عقـــدة أوديب» المعروفة والعمود الفقري لنظرية فرويد الجنسية. أما الابنة فتشعر بنقيض عقدة أوديب أو بالأحرى تشعر بـ«عقدة ألكترا» Electra Complex ، أي أنها تحب والدها وتكره والدتها التي تنافسها وتشاركها في عطف واهتمام ومحبة والدها!. تتشابك العواطف وتمتزج النقائض: فالحب والكره يجتمعان معاً في نفسية الطفلة. والحب يدفعها إلى التقمص والاقتداء بمن تحب، والكره يدفعها إلى الميول العنائية والهدمية ضد من تكره Aggression وظهور فرد آخر في البيت (كالمولود الجديد) يطلق في نفسية الطفلة الأكبر المنافسة من عقالها ويضرم نار الغيرة فيها. والغيرة والكره والعداء تجاه واحد الأبوين يثير فيها الشعور بالاثم guilt feelings لأن كره الأبوين خصيلة ذميمة. واذا ما افتقدت الطفلة – وكذا الطفل – شخوص المحبة واهدافها ارتدت الى نفسها لتعشقها وتمجدها، وتلك هي الميول النرجسية (أو حب الذات) Narcissism المعروفة.

وتختلط الرموز والشخوص والمفاهيم في عقل الطفل: فيصبح الأب أي رجل أو ذكر وتصبح الأم أية أمرأة او أنثى. وتتكاثف عواطف الكره والحب والمنافسة والغيرة والحقد وحب الذات حول اي شيء يحل محل الأب أو الام الاصيلين. ولذلك نجد الحماة وهي تنظر الى أفراد الاسرة الجديدة بعين منظارها إلى أسرتها القديمة عندما كانت طفلة وفتاة. ومن هذه المفاتيح العديدة نستطيع أن ندخل الى نفسية الحماة في سلوكها العائلي، واضعين نصب أعيننا عشرات من العوامل الاضافية الاخرى اجتماعية كانت أم نتيجة الثقافة المحلية أو التجارب الحياتية الاخرى. ولعل أهمها مشاهدتها او دخولها في النزاعات التي تحدث بين والديها أو مع أخوتها وأخواتها، أو مع حماتها هي بعد زواجها. والنزاعات المسبقة توزع الحب والكره على أفراد الاسرة بنسب متفاوتة:

فالحماة تريد ان تمارس سيطرتها على البيت كسابق عهدها. ووجود امرأة جديدة «دخيلة» في دارها يعني الحد من نفوذها على ابنها. والزوجة

منافسة عاطفية وإدارية، تسرق الحب من ابنها الذي كان من نصيبها هي وتتحكم في تسيير دفة البيت. والزوجة هي كابنتها التي كانت تسرق عطف واهتمام أبيها. والزوجة تذكرها او تذكر غيرها من الناس أنها - أي الحماة قد تقدمت في السن...

والزوجة الجديدة هي بمثابة «الضرة» في الاسرة الاسلامية التي تسمح بتعدد الزوجات. والحقيقة أن الزوجة الأولى لدى عرب البوادي والاسر الاسلامية المتحفظة تكتسب نفوذاً كنفوذ الحماة بين منافساتها الزوجات الحديثات. فهي المحترمة، وهي الآمرة والناهية. غير أن زوجة الأبن قد لا ترضخ أو تعترف بالعرف السائد، وعندئذ تنشب الحرب الخفية أو العلنية بين الاثنتين.

والزوجة، هي كالابنة التي تكره أمها (او حماتها) التي تنافسها في حب زوجها (أو أبيها السابق). وتشعر الحماة الام بامتداد وخلود مشاعرها الشابة الممزوجة بالجنس والعطف والامن في أبنائها وبناتها. فالاطفال (الكبار المتزوجون الآن) هم ضمان عاطفي يكمل حلقة من حياة الام التي دخلت خريف الحياة وتتوجس من شتائه. فالحماة إذن تتقمص أبناءها وبناتها وتضع نفسها في مواضعهم، وهي بذلك تتدخل - لا شعورياً - في شؤونهم ونيابة عنهم.

والغيرة الطفلية هي ذات الغيرة التي تحسها الحماة الكبيرة. وحبها النرجسي لنفسها هو حبها لذاتها وهي طفلة. والتقمص النفسي القديم يجعل الأم «الحماة» تحب وتكره وتعادي زوج ابنتها أو زوجة ابنها، مما يغرقها في بحر من القلق المزمن المرهق. ولعل كره الزوج لحماته هو نفور باطني من صورة عجوز لزوجته الشابة اليافعة الجميلة!.

ولا تتعظ الحماة بما قاسته على يد حماتها هي - إن كان لها حماة، لأن عواطف الحقد والكره تنصب على فريسة جديدة أو (كبش الفداء) Scape-goat وهي زوجة ابنها. فلتكن اذن منتقمة ناقمة.. ولتكن رئيسة لا مرؤوسة..، وليكن هذا الاسلوب والتبرير لا شعوريا وغير متعمد!.

والحماة التي ضمرت الكره الدفين لابنتها منذ صغرها، قد تمدد إيذاءها

لها بعد زواجها. وكم من أم أفسدت ابنتها - لا شعوريا - بالتدليل أو بالتحريض على المناكفة، أو على إرهاق ميزانية العائلة، أو بإثارة الغيرة والشكوك، أو بعدم تعليمها أسس المهام والواجبات الزوجية والبيتية الضرورية. وتلجأ الأم إلى تحطيم ابنتها باطنياً بتخريب حياتها الزوجية كلية سواء بالطلاق او الافتراق أو باذكاء التعاسة الزوجية المستديمة بالعراك. ويؤكد فرويد أن الأم قد تكره ابنها او ابنتها منذ طفولته لأسباب عديدة منها مثلاً بسبب كرهها لزوجها ذاته الذي انجبت منه اطفالها، أو لأنها لا تحب الاطفال أو لم تتمنى مجيء ذلك الطفل في الوقت الذي ولد فيه، أو لأنها محرومة الحنان، أو لأنها ترملت وهي شابة.

ونقيض ما تقدم، هو أن تتقمص الحماة ابنها أو ابنتها إلى حد الهوس المريض - أي الذوبان الشديد لشخصيتها في شخصية ابنها (أو ابنتها) بحيث يصبح الزواج كارثة عليها لأنه نذير الفراق. وما أصعب الافتراق بعد التحام عاطفي طويل.

مزيج غريب ومعقد من شتى الانفعالات وردود الافعال يدور في عقلية الحماة عندما تتعامل مع نسيبها أو نسيبتها. ولا شك ان جذور كل تلك التصرفات تتغلغل إلى الطفولة وتمر بمسيرة حياة المرأة إلى آخر يوم أصبحت فيه حماة حقيقة.

عمر الحماة.. ودور الازواج

ويجب ان لا نقع في خطأ ظاهري هو أن تصرف الحماة ربما يعتمد على عمرها، فعمرها يتوقف على موعد زواج ابنتها او ابنها. وقد تصبح الام حماة وهي لا تزال شابة أو في اواسط العمر، او قد تكون كهلة أو عجوزاً. لكن بمرور السنين تدخل تغييرات لا جدال فيها على سلوك الحماة. فحماة اليوم لا تطابق حماة العشرة سنين التي تليها. فتقدم العمر قد يزيدها شراسة أو يزودها حكمة وتعقلاً!..

ولا يغرب عن بال كل دارس محايد ان الحماة تتعامل وتتصادم مع «شخصيات» أخرى هي الزوجة والزوج والحماة الأخرى. وقد تكون

إحدى تلك الشخصيات أو جميعها مصدر المشاكل والقلاقل، وعندئذ تكون تصرفات الحماة هي بمثابة ردود أفعال أو دفاعاً عن النفس، فهي البريئة المسكينة!..

محاسن الحماة

لا يستغربن القارىء الكريم إذا قرنا صفة «المحاسن» بالحماة أيضاً..، فعسى أن نكره شيئا وهو خير لنا..، كما لا يخلو أي أذى من منافع ليست في الحسبان. ويقتضي الإنصاف أن لا نغمط الحماة حقوقها وأفضالها، وهي:

أن الحماة هي نفسها الأم الحنون التي تتقمص ابناءها وبناتها وتريد ان تخلد سعادتها بسعادتهم اولا، وهي تضحي من اجل ذلك بالكثير من صحتها او بما تملك. وهي التي ترغب ان تبني حياتهم الزوجية على اسس متينة وضمانات اقتصادية اكيدة. وهي المربية لصغارهم والناصحة لهم...، وهي الحارسة والرقيبة النابهة على احفادها الصغار..

وهي المعلمة المجربة للزوجة الشابة الساذجة او الطائشة. وهي التي تعيد الى اذهان الازواج ما نسوه او تناسوه من اصول وعرف وتقاليد يجب مراعاتها تجاه ذوي القربى.

والحماة (كالجد) تنقل التراث الى الجيل المعاصر، اذ هي تحكي لاحفادها حكايات الاجداد، وتصف لهم عاداتهم ومعاييرهم وطبائعهم من خلال اقاصيصها او مواعظها او في اثناء منازعاتها او مرافعاتها!!.

واخيرا، فان الحماة، باختلاقها المنازعات الزوجية والقلق والتوتر العصبي، قد ضمنت دخلا ثابتا للاطباء النفسانيين الذين يعالجون المشاكل الزوجية كل يوم في عياداتهم!.

الحماة في المجتمعات البدائية

كشفت الدراسات الانثروبولوجية للقبائل البدائية والمحارم والمحرمات Taboo والسلوك الجنسي بين افراد العائلة والطوطمة Totemism (٢)، كشفت عن وجود علاقات بين الازواج والحمو والحماة تسير وفق قوانين

دقيقة وصارمة واعتبارات مقدسة وعادات طريفة تستحق الدرس والتأمل

فبين قبائل (الميلانسيا) التي تعيش في جزائر (بانكز)، لا يقترب الزوج من حماته ولا هي منه قط. فاذا تصادف ان التقيا في ممر او درب، فعلى الحماة ان تتحاشاه، وتخرج عن الطريق وتدير ظهرها له حتى يتجاوزها. فاذا كان من الارفق لها، فعليه هو ان يعمل الشيء ذاته!.

وفي منطقة (فانو لافا) في ميناء (باتيسون)، لا يمكن للرجل ان يتبع حماته على الساحل حتى يزيل ماء البحر آثار قدميها اثناء المد. ويحق للزوج محادثة حماته على بعد مناسب، ولكن لا يحق لهما مخاطبة الاخر باسمه الصريح!.

وفي جزائر (سولومون) يحق للرجل بعد زواجه ان لا يرى ولا يحادث حماته قط!... فاذا ما قابلها بالصدفة فيمكنه ان يتجاهلها بالاختفاء عن انظارها باسرع وقت.

وبين قبائل (البانتو) الشرقيين جرت العادة ان يعبر الرجل عن استحيائه من حماته بتجنب مجتمعها وجماعتها. وعليه ان لا يدخل كوخها، واذا رآها قام بتغطية وجهه بالترس بينما تختبىء هي وراء شجيرة او دغل. فاذا لم تجد الحماة اي ملجأ تحتمي به، فيمكنها ان تلف حزمة من الاعشاب على رأسها كعلامة على اجرائها «طقوس الجافاة السائدة».

اما الاحاديث والمناقشات الضرورية فيجب ان تجري بواسطة شخص ثالث، او بالصياح من مسافة بعيدة ويفصل بينهما حاجز.

وبين قبائل (باسوجا) عند منابع النيل، يمكن للزوج ان يحادث حماته اذا كانت في غرفة ثانية بشرط ان لا يراها وعقاب المخالف شديد في جميع الحالات الانفة الذكر!.

ولما تقدم تفسيرات وتعليلات انثروبولوجية ونفسية كثيرة قد لا تهمنا كثيرا، لكنها على ما يبدو، قيدت الحماة البدائية وجمدت نفوذها على الزوجين بطقوس صارمة قلبت الحياة الزوجية الى شبه نعيم مستديم. وباختفاء تلك القوانين في مجتمعاتنا الحديثة المتمدنية، ظهرت مشاكل اخرى

وحلت محلها «قوانين» ومعايير فردية اذ ان كل زوج وزوجة راح يختار السبيل المناسب والمعاملة التي في هواه لمعالجة تدخل ومشاكسة حماته! مما زاد في الاحتكاك بين افراد الاسرة المتمدنية.

أيتهما اسوأ...؟

وبعد فترة قد يتبادر سؤال لا بد منه هو: ايتهما اسوأ على الاسرة، والدة الزوج ام والدة الزوجة؟. والحقيقة ان اية منهما يمكن ان تكون صاحبة الفضل او مصدر الاساءة. ولعل ذلك يتوقف على نفسيتها وتجاربها ونضجها العاطفي والعقلي منذ صغرها. وللثقافة المحلية، وتقاليد الجماعة تأثير اخر. ففي عراقنا مثلا، نجد ان معظم التذمر يدور حول والدة الزوج، بينما المتعارف عليه والرأي السائد ان والدة الزوجة هي مصدر العطف والمحبة للزوجين. وفي مصر مثلا، نجد ان معظم النكات والصور الكاريكاتورية الشامتة تدور حول والدة الزوجة.

اما في المجتمعات البدائية، فقد رأينا أن كل المحرمات والطقوس والعادات تنصب على والدة الزوجة تخصيصا. ويمكن الاستنتاج عموما، ان التعاطف والمودة موجودة بين والدة الزوجة وزوج ابنتها، وان ذلك التعاطف اكتسب طابعاً محرماً بين البدائيين، مما دفع فرويد الى اعتبار ذلك التحريم ذا سحنة او مسحة جنسية.

ويمكن القول ان كل حماة تختلف عن الاخرى، وان شخصيتها وظروفها هي التي تتضافر جميعا للتأثير في سلوكها.

مستقبل الحماة

الملاحظ ان نفوذ الحماة طفيف في المجتمعات الغربية المعاصرة. ولذلك عدة اسباب منها: ان العادة الجارية هناك استقلال الزوجين في عش منفصل عن الوالدين حال زواجهما... ولان الاسرة الغربية اقرب الى التفكك من الاسرة الشرقية، فالابن والابنة يمارسان الحرية والاستقلال العاطفي في سن مبكرة، ولذلك يضمحل نفوذ الابوين - الام على الخصوص - على الجيل الناشىء...، بالاضافة الى ان المجتمع الحديث ملزم بتقديم ضمانات للاباء

والامهات في المرض والكبر فلا يضايقون ابناءهم باعالتهم ولا يتحملون منتهم.

وتشير الدلائل الان الى ان التحول الحضاري الذي يسود مجتمعاتنا النامية يباعد بين افراد الاسرة الشرقية الواحدة، واصبحت الحياة الزوجية في المدن الكبيرة اشبه بالحياة الغربية من حيث انفصال واستقلال الزوجين وابتعادهما عن نفوذ الابوين. كما ان الشباب يمارس حرية اكثر مما مارسها شباب العقود الاولى من هذا القرن. فيمكن التكهن اذن بان تأثير الحماة سيتفاءل في المستقبل، ويستقصر على بقع ريفية ومجتمعات بدوية متفرقة.

ولعل هذا التحول سيكون من صالح الحماة، لأنه سيزيل من ذاكرة الأجيال القادمة أي أثر سيء ويجعلها تلك الأم الزائرة الخفيفة الظل التي تتمنى لزوجة ابنها أو زوج ابنتها كل السعادة والموفقية. ولا ينسى التاريخ بعض اثار الحماة «السياسية» السيئة!. ففي تاريخ أوروبا خاصة وتاريخ الأمبراطوريات والملكيات القديمة وسعت الحماة نفوذها ومدته خارج نطاقَ الأسرة إلى أمور الدولة. وتاريخ فرنسا الملكية مليء بمغامرات «الحموات»: الملك الابن الضعيف الشخصية والزوجة الشابة الساذجة وحماتها الداهية التي تكيد وتدبر المؤامرات!.

وتتضح لنا مدى حكمة الإنسان البدائي في معالجة بعض مشاكل عصرنا الذري المغرور بالعلم والتكنولوجيا في ما استعرضناه من تلك القيود المقدسة بين افراد الاسرة. فقد اجتثت تلك القوانين كثيرا من القلق العصري بان حددت لكل فرد دوره في الحياة والطريق الذي يسلكه. ولذلك يتساءل كثير من علماء الاجناس بين أونة واخرى هل يحق للانسان العصري ان يسخر من بعض عادات البدائيين الحكيمة البعيدة النظر؟.

وختاما:

فان الامانة العلمية تحتم رفع اي التباس حول ما ذكرته في مستهل المقال عن تنكر او تجاهل الفنون والافكار الانسانية للحماة. فالحقيقة ان الحماة امرأة قبل كل شيء وكانت الامرأة - ولا تزال - تحتل مكانا عزيزا

وذكرا حميدا او خبرا ذميا في اضيق زاوية من نتاجات الحضارة البشرية.

وقد اتهم بعض مشاهير الكتاب والفلاسفة والشعراء بعدائهم للمرأة (شوبنهور وبرناردشو وتوفيق الحكيم)، كما اتهم غيرهم بعشقهم الجنوني للمرأة (مثل بيرون وعمر بن ابي ربيعة). وكل ذلك يؤكد ان المرأة على تعدد صفاتها هي محرك حيوي وخطير للحياة لا غنى عنه قط. ولم يكن تجاهل الحماة بسبب مزعجاتها، فمزعجات الحياة اكبر واعمق من كل الحموات، بل ان الاقرب الى المنطق هو ان نبرر هذه الظاهرة بان الانسان ميال بطبعه الى تخليد الجمال والشباب واليفاعة و« الدلاعة » في ذروتها وأوجها. لذلك نرى انشطة النحت والرسم والموسيقى والقصة والشعر والنثر تدور في فلك الفتاة والمرأة والام اليافعة - لا الحماة، التي ادت ادوارها ولم يتبق لها الا دور واحد في الفصل الاخير من حياتها.. وهو فصل لاسع او بارد او مأساوي.. وان من الافضل الاشاحة عنه.

لعل في مقالتي هذه ايفاء لدين الحماة علينا جميعا بما فيه من فضل او اساءة!

الاصطلاح العلمي الموحّد

وحدة الاصطلاحات العربية هي احد الخيوط العديدة الطويلة التي تكون نسيج الوحدة العربية. ومن اجل اتمام هذا النسيج الدقيق الجميل تسير على الدرب قوافل الهيئات والجمعيات والندوات اللغوية - العلمية المختلفة سعيا وراء توحيد الاصطلاحات وايجاد المزيد منها على مر الايام. وبدون وحدة الاصطلاح تتمزق المفاهيم او تتشتت...، وبدون وحدة الاصطلاحات لن نصل الى هدف التعليم الجامعي الكفوء باللغة العربية..

ورب سائل يقول: ولماذا التدريس باللغة العربية... وامورنا سائرة دون عرقلة بلغة الاجانب من انكليزية وفرنسية والمانية؟؟ بل قد يرتعب اساتذة اخرون من الفكرة ذاتها مبادرين الى الاعتراف انهم لا يستطيعون افهام طلبتهم باللغة العربية - اي لن يشعروا بامكانية التعبير عن الحقائق العلمية بهذه السهولة الجارية الآن على التدريس باللغة الاجنبية..

وقد اشبعت هذه المسألة درسا وتمحيصا، وقال الراسخون في العلم والمؤمنون بلغتهم العربية الغنية وكنوزها المدفونة، قالوا ان مسألة تعريب التعليم الجامعي ليست حماسا فارغا او تعصبا قوميا او تقليدا اعمى لأمم اخرى تدرس بلغتها القومية من تركية او فارسية او يابانية او روسية..، انما هي اعمق واوسع من ذلك بكثير. فالتعليم بلغة الام هو انفذ واسهل هضما للطالب. مما لو تلقى العلم بلغة اجنبية مهما بلغت سيطرته على تلك اللغة من قدرة - وهذا مالا يضمنه اي خبير حتى من ناطقي تلك اللغة.

* نشرت في مجلة (العربي) الكويتية، العدد ٢٠٩، نيسان ١٩٧٦.

اما العذر المنطقي في هذه المرحلة الذي يقول اننا لا نمتلك المرادفات الكافية لجميع المصطلحات العلمية، فهو عذر صحيح ظاهريا وخاطىء فعليا. فهو صحيح في الحاضر السريع الزوال.. ولكنه خاطىء في المستقبل البعيد الأمد لأن الارادة والتصميم والمثابرة هي التي تضمن لحاقنا بالركب اللغوي العلمي العالمي.

وعلينا ان لاننسى حقيقة حيوية أخرى وهي ان اللغة كالكائن الحي يحتاج الى غذاء وعناية و «رياضة. ورياضة اللغة هي استعمالها وتكرار استعمالها.. ثم تكرار استعمالها، والا جمدت وضمرت وذبلت وجرّت خطاها بجهد والم. وانظر الى اليد والذراع المشلولة او التي لا يستعملها صاحبها كيف تهزل وتضعف. كذلك هي اللغة تذوي بالاهمال، وتنمو وتتغذى وتتطور بالاستعمال والممارسة. ويكون نموها سريعا كنمو الطفل الرافل بالصحة والعافية. وعندما نلتزم باستعمال لغتنا سنضطر الى التنقيب والبحث عن كلمات عريقة واشتقاقات حديثة.. ومن خلال هذه العلمية نعمل على احياء ما اندثر وانماء ما ضمر. ودليلنا على ذلك اننا تطورنا في مجال الانشاء والشعر والخطابة لان صاحب الحاجة يقلب بطون الكتب ويحار في ابتكار التعابير والتراكيب. فالحاجة هي الحافز على التنقيب والابتكار دون شك...

مقدمة طويلة لا احسبها مملة - من اجل ان اقدم للقارىء العربي الكريم محاولة جديدة في طريق تعريب التعليم الجامعي - في ميدان العلوم الطبية الا وهي:

« المعجم الطبي الموحد ».

المعجم الطبي الموحد

المعجم من الانكليزية الى العربية صدر بطبعة خاصة في اواخر عام١٩٧٣ بـ٤٠٤ صفحة ويحتوي ما يزيد على١٩ ألف كلمة وقد طبع في مطبعة المجمع العلمي العراقي واستعملت فيه طريقة الاملاء الاجنبية المستعملة في قاموس (دورلاند) الطبي. وقد اشترك في تأليفه كل من الاساتذة: د.حسني سبح، د.عبد اللطيف البدري، د.محمد احمد سليمان،

د. هيثم الخياط د. محمود الجليلي، د. مروان محاسني والدكتور احمد عبد الستار الجواري. وهم اما اعضاء في مجامع اللغة العربية او رؤوساء جامعات اقسام فيها. وتولى رئاسة التحرير الاستاذ الدكتور محمود الجليلي رئيس جامعة الموصل سابقا واستاذ الامراض الباطنية في جامعتي الموصل وبغداد.

وقد كانت مجموعة السادة المؤلفين بمثابة لجنة فرعية من صفوة العلماء الأطباء المتخصصين عهد اليها بتأليف المعجم من قبل اتحاد الاطباء العرب عام١٩٦٦. وقد شرح حينذاك الأمين العام المساعد للاتحاد في مقدمة المعجم غاية المعجم وجهود لجنة التأليف آنفة الذكر. وقد عقدت اللجنة اجتماعات عديدة في القاهرة وبغداد والموصل ودمشق ولبنان واقرت في كل منها عددا من المصطلحات والمؤسسات العلمية لأخذ رأيها فيها.

القواميس والمعاجم الطبية السابقة:

ان المعاجم الطبية العربية كثيرة نسبيا، الا انها جميعها غير متكاملة من حيث عدم المامها بكل ما يروم الطبيب استخراجه من كلمات طبية يقرؤها باللغة الاجنبية (وهي الانكليزية او الفرنسية على الاغلب)، بالاضافة الى انها عندما تصدر فقلما يعاد طبعها او تنقيحها او اضافة مرادفات اخرى عليها. وهكذا تختلف عن الركب العلمي وتتقلص فائدتها تدريجيا ويضاف الى هذه المعاجم المستقلة مجموعات كبيرة من الاصطلاحات الاجنبية التي يدرجها المؤلفون في كتبهم اما في اثناء السطور والصفحات المناسبة او بشكل ملحق إيضاحي في آخر الكتاب لشرح الكلمات واذكر هنا ما هو معروف لدّي - كطبيب ومتخصص - من المناهج الطبية في البلاد العربية:

معاجم طبية

١ - محمد شرف

معجم شرف الطبي (انكليزي - عربي)

القاهرة، ١٩٢٦ المطبعة الاميرية.

٢ - ابراهيم ابو النجا (مترجم)

الموسوعة الطبية الحديثة. ترجمة

ابراهيم ابو النجا (وآخرين)، القاهرة
الادارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي.
١٥ مجلد. (بدون تاريخ).
ترجمة كتاب: الانسكلوبيديا الطبية الحديثة

٣ - اتحاد الاطباء العرب - لجنة المصطلحات الطبية.
مصطلحات طبية
بغداد - مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٦٩.

٤ - حسن كمال
قاموس الطب الفرعوني
القاهرة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧.
٥١٢ ص.

٥ - د. شفيق عبد الملك
معجم الفاظ علم بنيان جسم الانسان
والتشريح. (انكليزي - عربي).
القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة ١٩٧٣.
١٥٢ ص.

٦ - د. شفيق عبد الملك
معجم الفاظ علم تكوين الجنس. (انكليزي - عربي).
القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠.

٧ - عبد العزيز محمود
اطلس التشريح. ط٣.
القاهرة مكتبة النهضة، ١٩٦٦.
٣٨٦ ص.

٨ - عوض جرجيس عوض
المعجم الطبي الحديث.
بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٠.

٩ - كليرفيل، الكسندر
معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات.
(فرنسي - عربي). ترجمة مرشد خاطر
(وآخرون)
دمشق مطبعة الجامعة السورية.
١٤ + ٩٦٠ ص.
(بالاصل موضوع في اربع لغات/فرنسي - انكليزي - الماني - لاتيني).

١٠ -د. علي محمود عويضة
المعجم الطبي - الصيدلي الحديث
(انكليزي - عربي)
القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠
٢٥٠٠ ص.
الثمن عشرة جنيهات.

١١ - مجمع اللغة العربية
مجموعة المصطلحات العلمية والطبية التي اقرها المجمع.
١ - ٨ ج، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ١٩٥٧ - ١٩٦٦.

١٢ - مصطفى الشهابي
معجم المصطلحات الجراحية.
دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٦٢.

١٣ - المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي
مجلة اللسان العربي - المجلدين السابع والثامن
الرباط، ١٩٧٠ - ١٩٧١.

١٤ - فهيم ميخائل ابادير
معجم التشريح (انكليزي - عربي).
القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥.
١٨٨ ص.

١٥ - د. ميلاد غطاس
القاموس الطبي الحديث. (انكليزي - عربي).
القاهرة، مكتبة الانكلو المصرية ١٩٦٧.
٦٣٤ص.

١٦ - يوسف حتي
قاموس حتي الطبي، (انكليزي - عربي).
بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٦٧، الطبعة الثانية، ١٩٧٢.
١٠٦ + ٧٥٢ص.

١٧ - ميلاد بشاي
المعجم الطبي الحديث، (انكليزي - عربي).
القاهرة، مكتبة الانكلو المصرية، ١٩٦٧.
٦٠٧ + ١٨ص.

ولم ادرج في هذه القائمة المعاجم الخاصة بعلم النفس او الصيدلة البحتة لانها لا تدخل في مجموعة العلوم الطبية الصرفة. ومطالعة سريعة لهذه المعاجم توقع القارىء المثقف وطالب الطب والطبيب الممارس في حيرة وارتباك لتباين واختلاف معانيها واشتقاقاتها وصياغتها. ولو جئنا بالامثلة لاحتجنا الى كتيب مستقل. واكتفي بذكر امثلة متفرقة توضح ما قصده. فقد جاءت في احد المعاجم كلمة Psychotherapy بمعنى الطب النفسي وهو تعريف خاطىء وترجمة مشوهة لان الكلمة بالانكليزية واضحة وبمقطعين صريحين هما «العلاج النفسي». اما (الطب النفسي) الحق فهو فرع من علم الطب يرادف كلمة Psychiatry وهو علم الامراض النفسية والعقلية.

اهمية المعجم الطبي الموحد

لا شك ان المعجم الطبي الموحد بصورته الحالية يمتاز عن غيره من المعاجم السابقة بما يلي

١ - انه اختار معنى واحدا من مجموعة المعاني التي سبق وان وضعت في معاجم اللغة الاخرى.

٢ - وانه استعمل الكلمات المتداولةأوالمستعملةسابقا وخاصة التي اختارها الاطباء العرب الاقدمون - اذا كانت تفي بالغرض.

٣ - ترك الكلمات الدخيلة واستعاض عنها بكلمات عربية كلما تيسر ذلك..، اي التي وجد ما يقابلها في العربية...

٤ - استبعد الكلمات الدخيلة اي المعربة كما هي الا اذا كانت اسم شخص او مشتقة من اسمه.

٥ - التقليل من عملية النحت والتركيب الا في ما ندر، كشيوع استعمال الكلمة او سهولتها وفهمها وانسجامها مع الذوق الحسي دون الاخلال بالقواعد والضوابط.

وقد جاء في مقدمة المعجم شرح لاسلوب تأليف المعجم والنهج الذي اتبعه المؤلفون في ترتيب وتصنيف مفرداته كما بينا آنفا.

والحقيقة ان ما ورد فيه من كلمات عربية يدل على مدى الجهد المبذول في انتقاء واختيار الكلمة المناسبة. ويكاد الكتاب يخلو من اية كلمة معقدة او منفرة للسمع والذوق. اما الكلمات الغريبة على السمع فقد جاءت غرابتها من عدم استعمالها سابقا في المعاجم الاخرى او عدم تداولها من قبل الاطباء. الا ان الزمن كفيل بجعل الغريب اليفا ومستساغا.

نواقص المعجم الطبي الموحد:

ان المعجم بحجمه الحالي ومجموع كلماته صغير جداً بالنسبة الى العلوم الطبية الواسعة التي يجب ان تضم العلوم الطبية الاساسية من تشريح ووظائف الاعضاء والكيمياء الحياتية وشيئا من العلوم الملازمة للطبية، الاصطلاحات الصيدلانية وعلم وطب الاسنان وان امكن ايضا اسماء الاعلام من العاملين في حقل العلوم الطبية.

كذلك، فان المعجم الطبي الموحد يحتوي على اقل ما يمكن من اصطلاحات علم الطب النفساني، وهو علم طبي لا يدرسه غير الاطباء ويجب ان يؤخذ بنظر الاعتبار عند تأليف اي معجم طبي لانه يختلف كثيرا عن المقصود بعلم النفس Psychology والذي يمكن ان يدرسه ويتخصص فيه

بصورة مستقلة اي خريج من كليات العلوم والآداب والمعاهد التعليمية اي انه يمكن ان لا يدخل في المعجم الطبي. والذي ارمي اليه ان كل ما يدخل في العلوم الطبية يجب ان يشكله المعجم الطبي الموحد وهو ما ليس حاصل بالوجه الشافي وفي الطبعة الحالية...

مستقبل المعجم الطبي الموحد

ان الطبعة الاولى (الخاصة) تبشّر بخير كبير لانه النواة الاولى الصحيحة لتوحيد الاصطلاحات الطبية. وما نتمناه نحن الاطباء العرب ان تستمر هيئة التحرير ومن يحمل رسالتها بعدئذ على المتابعة والتوسع في هذا المجال ليكون المعجم شاملا ومواكبا لسرعة نمو اللغة الطبية. واذكر على سبيل المثال انه خلال تسعة اعوام (اي بين الطبعة الرابعة والعشرين عام ١٩٦٥ والخامسة والعشرين عام ١٩٧٤) لقاموس دورلاند الطبي اضيفت اليه ١٤ الف كلمة طبية جديدة، بينما نجد ان كل ما حواه معجمنا الطبي هو ١٩ الف كلمة بصورة كلية.

ولأجل ان تكون جهود هيئة التحرير ومشروع اتحاد الاطباء العرب في هذا الاتجاه ناجحا وراسخا فان من الضروري ان يكتسب المعجم الصفة «الرسمية» لاستعماله وتصميمه من خلال الجامعة العربية مثلما جرى في توحيد الاصطلاحات العسكرية، والا فان قواميس اخرى ستستمر على الظهور ومنها المترجم فقط ومنها المنقول والمقتبس بتحرير بسيط، ومنها المعتمد على تفاسير واجتهادات فردية نتيجتها مجرد تشويش في المعاني وفوض في اللغة وارتباك في التعليم الجامعي والمحيط الثقافي.

ان تأليف المعاجم من ادق واصعب التأليف اذ هو مزيج من اللغة والنحو والعلم والتكنولوجيا. وهو تجسيم واقعي لعمل الفريق المتكاتف. وقاموس (دورلاند) الطبي الشهير الواسع الانتشار يمكن ان يعطينا فكرة سريعة عن حقيقة تأليف المعاجم:

فالقاموس هو باسم العالم وليم الكسندر نيومان دورلاند (١٨٦٤ - ١٩٥٦). وقد صدرت منه إلى الآن خمس وعشرون طبعة منذ عام ١٩٠٠ وحتى

عام ١٩٧٤ وتتألف الطبعة الأخيرة من ١٧٤٨ صفحة. اما هيئة التحرير الدائمية فتتألف من ٢٣ محررا. ولها هيئة استشارية تتألف من ٨٤ عالم متخصص في شتى الفروع الطبية. وقد استخدمت في تأليف الطبعة الأخيرة الالة الحاسبة الالكترونية (الكومبيوتر)، وبذلك اصبح بالامكان خزن ومراجعة واعادة كل ما جاء في محتويات القاموس وفي اية لحظة.

وللقاموس طبعة باللغة الاسبانية وطبعة اخرى للعميان بطريقة (بريل).

هذه اللمحة السريعة عن تكنولوجية وفن علم المعاجم يجب ان ينفث فينا الحماس والتصميم على ايجاد معجمنا الطبي المنشود. وفي اعتقادي ان المعجم الطبي الموحد بشكله الحالي يمكن ان يتطور لو عرفنا كيف نكرس الجهود ونوحدها وندعمها ماديا ومعنويا.

وامنيتي ورجائي من كل زميل طبيب يكتب او يحاضر باللغة العربية ان يضحي باجتهاداته الخاصة ويلتزم بما جاء في المعجم الطبي الموحد اما ما لم يرد ذكره فيه فهو الذي يحتاج الى التصرف والاجتهاد.



خداع النفس أو شفاء النفس

خداع النفس وشفاء النفس موضوع واحد ذو وجهين. والوجه الواحد منه يتناول نواحي متعددة من السلوك البشري تهم الطبيب النفساني والعربي. وخداع النفس سلوك يحاربه الاثنان معاً، كما ان شفاء النفس عمل يمارسه الاثنان ايضا بطرائقهما الخاصة. فنقاط الالتقاء بينهما كثيرة..، على الرغم من ان هذه المقالة موجهة الى المربين والاساتذة في جميع مراحل الحياة التعليمية والتثقيفية. فما هو المقصود بخداع النفس؟

ان خلاصة خداع الذات يمكن في قصة النعامة التي تطمر رأسها في الرمل اذا احست بالخطر، وكأن من لا يَرى لا يُرى. كذلك الانسان، تصل به الامور الى حالة النعامة دون ان يعي حقيقة عمله. فكيف يتم ذلك في نظر علم النفس؟

ان الانسان يتعرض الى عشرات الشدائد والمعضلات في حياته، بعضها بسيط يمكن حلها وتجاوزها، واخرى شديدة لا يمكن مواجهتها كما هي فيتعرض الى التوتر والحرج والقلق والاضطراب النفسي. وقد لا يجد وسيلة لملافاة التحدي والتهديد الا بالنسيان الوقتي عن طريق الكبت. الا ان الكبت كالنار المتقعدة تحت الرماد. فالكبت ينقل الصراع النفسي الى اللاشعور ويتجاهله مؤقتاً. لكن الصراع يبقى في اللاشعور ويصبح عقدة ازلية لا يمكن ان تنمحي من العقل الا بالتعبير عن نفسها بطريقة من الطرق. فاذا ما نجحت ورجعت الى مستوى الوعي والشعور كما هي صريحة

★ نشرت في مجلة (النبراس) نقابة المعلمين بالموصل. العدد ٧ كانون اول ١٩٧٣.

واضحة، عاد الصراع والالم والمرض الى سابق قوته. اما اذا رجعت الى الوعي متنكرة باسلوب مغاير وبشكل آخر، فانها تكون قد (ساومت) وظهرت بحل جزئي يرفه عن التوتر ويلطف من القلق.

وبهذا الحل الجزئي تتمكن العقدة من التسلل الى الشعور وتنفذ اغراضها الاصلية دون ايذاء وصراع، بل بطريق غير مباشر. وهذا هو سر الحيلة النفسية او (الخدعة النفسية)، لان الحل الوسط او الاتفاق الجزئي يرضي الطرفين:

الواقع والواجب والاخلاق من ناحية..، والغرائز والاهواء والنزوات من الناحية الاخرى. وبالخدعة النفسية يتحول الكبت من اللاشعور الى الشعور آمناً مطمئناً مقبولاً.

والخدعة النفسية آلية او وسيلة لعقد اتفاق سلمي بين المقبول والمرفوض بين الشعور واللاشعور او بين الواقع والخيال..

ففي عملية (التبرير) يقول المثل:؟؟ من لا يصل العنقود يدعي انه حامض » اي كلما عجز الانسان عن تحقيق شيء أو فشل فيه وجد لنفسه المعاذير او برر عجزه بحجج واهمة تخفف عليه وقع الفشل. والطالب الكسول لا ينتقد ذاته بل يتهم استاذه بشتى النواقص التي ادت الى رسوبه.

وفي عملية (الاسقاط) يعكس الفرد ما في جعبته من ميول ورغبات الى الخارج مثل صفحة المرآة. فيراها صادرة من غيره وليست منه. فاذا شك زيد فيعمرو وكرهه في ضميره قلب الاسقاط الآية وجعله يرى ان عمرو هو الذي يشك فيه ويكرهه. والمدرس الفاشل او الضعيف او الحاقد يعكس كل ذلك على غيره من طلبة او زملاء فيراهم يعادونه ويريدون تحطيمه او يريدون الايقاع به...، وهي اوهام نتجت عن عملية الاسقاط..

وفي عملية (الابتلاع) نجد عكس ذلك، اي ان الفرد يمتص ويأخذ من الغير صفاتهم لتكون جزءاً منها وصادرة عنه. فلو ان الآخرين كانوا مذنبين وخاطئين فان الابتلاع يجعله هو المذنب والمخطىء ومستحق العقاب. ونجد ذلك في الكآبة مثلا عندما يلوم الانسان نفسه على اعمال لم يرتكبها هو ولم تحدث فعلاً.

وفي (التسامي)، تتحول الرغبات الصارخة والميول العدائية او المنفردة في اللاشعور الى ميول سامية طيبة ومحبوبة. فحب القتل او الغلبة والسيطرة قد يتسامى الى التخصص في التاريخ او الانخراط في الجيش او البروز في الملاكمة والمصارعة كذلك الصدمات والوحدة والفشل يتسامى به الانسان الى عمل ديني او خيري.

وفي (الحلم والخيال) ينتقل الفرد من الواقع وميدان الكفاح والصراع الى حالة من الاسترخاء ووضع الحلول النظرية والابتعاد عن الناس والواقع الى ان يصل درجة الذهول والعطل الاجتماعي.

وفي (النكران)، نجد ان الانسان يتجاهل الوقائع او يغمض عينيه عنها مثل النعامة. وهكذا نجد ان الشاب او الفتاة المحدودة الذكاء تنكر ضعفها الذهني ولا تقبل او ترضخ للحقيقة وهي ان سبب رسوبها المستمر في المدرسة هو محدودية قابليتها. ويمتد ذلك الى التبرير واتهام المدرسات.

وفي (الازاحة)، يحول الانسان عواطفه وافكاره من الهدف الاصلي والاولي الى ما يشابهه. الشخص الذي يحب امرأة متزوجة ويدرك ان ذلك عيبا وحراماً وخيانة، يزيح حبه للام الى حبه لاطفالها فيعطف عليهم ويتابعهم ويشجعهم.

و(التعويض) يشبه الازاحة تقريبا. فالشخص المصاب بالهزال.. ولا يستطيع البروز بالرياضة او لا يجتذب اعجاب الزميلات والزملاء لمنظره قد يعوض عن النقص بالبروز في الدروس النظرية او في الكتابة او في الخطابة، او في المقدرة على العمل السياسي او المحاماة.

وفي (النكوص)، يؤدي الصراع بالفرد الى التراجع نحو مراحل سابقة من التطور. فالطفل الذي عمره ١٢ سنة ويصاب بمرض جسمي شديد او يفقد والديه يتراجع ويتصرف كطفل عمره خمس سنوات، فيزيد من دلاله واعتماده على الاخرين ويريد ان ينام بجانب الام او الأب وقد يرجع الى التبول في فراشه ليلا.

وفي (الية التشكيل الرجعي)، نجد عملية معقدة وملتوية للخدعة النفسية. عانس مثلا، تتمنى ان تخطب وتتزوج، ولانها لا تريد الاعتراف

بهذه الرغبة الطبيعية او تراها شيئا مخالفا للذوق والاخلاق تقوم بتجنب المجتمع الرجالي، وربما تكره الرجال وتنتقدهم. واذا صادف احيانا ان سار رجل وراءها في شارع، رجعت الى البيت لتتحدث عن تدهور الاخلاق وكيف رجلاً لاحقها وتخلصت منه بصعوبة، بينما رغبتها الحقيقية الدفينة هي ان يلاحقها الرجال فعلاً.

واستطيع ان اجلب امثلة كثيرة من حياتنا اليومية على هذه الخدع النفسية او ما نسميها بـ «الاليات النفسية الدفاعية». ولنتكلم بصراحة ونقول، ما ضرر هذه الوسائل او الحيل؟.. الحقيقة ان جميعها مفيدة اذا كانت معتدلة لانها تحفظ التوازن النفسي وتودي الى اطمئنان ذاتي وعمل وانتاج يخلو من الهزات والاضطرابات.

فلا ضرر ان يتحول الشخص الاعتدائي العنيف (بالتسامي) الى موسيقار وفنان شهير، ولا بأس ان تتحول المرأة الوحيدة الكئيبة (بالازاحة) الى فرد اجتماعي نشيط فتسهم في الجمعيات الخيرية والدفاع المدني والتمريض (لتعوض) عن وحدتها وصدماتها الخاصة، ولا مانع ان يتحول الكره الى حب وحياد..، ولكن الضرر والخطر عندما تتحول الاليات النفسية الى حيل صرفة ودروع فردية وخدع واهية يؤمن بها الشخص ويتعامل عن طريقها من الناس الآخرين كالمغرور او التائه او الأحمق. الخطر كل الخطر في من يشعر بالنقص والتفاهة فيعوض عنها بالتغطرس والتكبر والظلم..، وفي ذلك المحروم من العطف او الأهمية فيجمع الثروة ويتبنى سياسة البخل على غيره من افراد عائلته او يضطهد الآخرين بالاقتراض بالفائدة، وفي ذلك الذي يعشق المتعة والوجاهة والجنس ولكنه يتظاهر بالزهد والتقشف والورع ثم ينتهز اقرب فرصة لكل يشبع شهواته.

كل انواع السلوك هذه علامات المرض والخلل.. التي تضر بصاحبها او بالمجتمع. وخير علاج لها هي: «مواجهة الذات ومكاشفتها». لكن كيف؟

قليل من الناس من يتعلم المواجهة وقليل منهم من يصارح ويقول انني افكر واعمل هكذا لانني «بالحقيقة» احب واشتهي او اكره او اغار او اطمع.

ولو توصل الانسان الى هذا المستوى من المواجهة والنضج الفكري لأصبح حكيا ومربيا وامتلك بصيرة تجعل من سيرة حياته نموذجا للهدوء والراحة والسعادة.

الا أن قليلا من الناس من يعترف في معبد الذات.. او يواجه نفسه في مرآة الضمير. قلما يعترف كهل مع نفسه أنه يتصابى ويتظاهر بالشباب والحيوية لجلب أنظار الشابات..، وقلما تعترف فتاة جامعية بأنها تغار من زميلاتها لأنها ليست جميلة مثلهن أو مجتهدة مثلهن. ويعزى ذلك بالطبع الى أن ما يدور من اليات نفسية يختفي ويتستر وراء اللاشعور في العقل الباطن.

وفي ميدان التربية والتعليم علينا ان نشجع المواجهة مع الذات فهي الطريق الأسلم نحو صحة عقلية جيدة. ووسائل التربية الحديثة تؤكد على اهمية التوجيه والتوعية والمصارحة والصدق والعطف والعلاقات الخالية من التعقيد والقسوة والامر والنهي. فالتلميذ المثالي هو من صنع المدرس المثالي. والاستاذ الذي يتجنب خداع الذات هو الذي ينجح في خلق جيل لا يخدع ذاته. ومن هنا تتضح صفات الاستاذ الناجح، الصفات التي ملخصها: ان يعرف الاستاذ نفسه واتجاهاته ونزواته ودوافعه لكي يعرف ايا منها يجب ان يكبح جماحها واي منها يفيد في توجيه الجيل الجديد، وبذلك نتخلص من شوائب العوامل الفردية والشخصية التي تربك وتحرف المنهج السليم في التربية.



هل المساواة عملية حسابية ؟

من العدالة بحق ان يخصص للمرأة عام بكامله لاحياء ما اندثر من مآثرها، وانعاش ما ذبل وتراخى من التزاماتنا تجاهها، ولدفع ورفع حقوقها الى مستويات المسؤولية والواجبات والحقوق التي يجب ان تمارسها وتتمتع بها وتطالب بها. ولن يكون للرجال فضل في الوصول الى كل ذلك ما لم تكن دعوتهم مخلصة ومبادئهم عميقة تابعة من ايمان وتصميم. واذا كانت الدعوات الى تحرير المرأة تعزي الى بعض الشخصيات «الرجالية»، فان المحفز الاول في هذا المضمار هو المرأة ذاتها التي استطاعت ان تقنع الآخرين بعدالة حقوقها ومطاليبها وان تجند الداعين لقضيتها والمدافعين عنها.

ولا اريد ان اغمط دور بعض الرجال في نشر وتحقيق مبدأ مساواة المرأة بالرجل..، بل اريد ان اقول ان صاحب القضية وحافزها ومحركها الاول كان هو المرأة ذاتها.. ولكن تبنّي الرجل لقضية المرأة اكسبها قوة وانتشارا في مراحل وتواريخ ماضية كان فيها صوت المرأة ضعيفا خجولا مخنوقا على الرغم منه، بينما اصبحت اليوم تعتمد على نفسها اعتمادا كلياً..

وعبر التطور الحضاري للمجتمعات البشرية والتنقلات المترابطة المتسلسلة مادياً وتاريخياً وقومياً، لم تعد قضية المرأة مسألة فردية او منعزلة عن غيرها بل جزءاً من قضية الانسان وحقوقه، وقضية العدالة الاجتماعية ومضامينها، وقضية العلاقات الاقتصادية وانتظامها في الاطار الاشتراكي. اما في البلاد

---

* نشرت في كتيب (المرأة والبناء)، لجنة الثقافة والاعلام لاتحاد نساء العراق - فرع نينوى ١٩٧٦.

العربية فقد ارتبطت ايضاً بواقع المجتمع العربي وبتطور الفكر القومي التقدمي.

بعد هذا كله، علينا ان نتساءل... ومن حق كل مواطن ومثقف ان يتساءل ايضاً: ماذا نعني بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل...، هل تعني ان ننقل المبدأ الى معادلة حسابية صرفة تقول:

المرأة = الرجل

وهذا ما أود ان اوضحه، وما ارغب ان اقوله بصراحة حسب تصوري ومفهومي للمساواة وحقوق المرأة..

ان المجتمع البشري خلية مهما صغر او كبر حجمها. ويعتمد عمل الخلية على أسس عمل الفريق المتجانس المنسجم المتعاون. ولا يستغني اعضاء الفريق احدهم عن الآخر، ولا يمكن انجاز العمل بصورة تامة وكفوءة بدون احد الفريقين. اما العمل بصيغ اخرى يسودها الظلم والاستغلال فهي مهزوزة غير متكافئة..

والمجتمع البشري يتكون من عنصرين اساسيين هما المرأة والرجل، والمطلوب منهما المشاركة سوية - وكفريق متضامن - في تدوير عجلة المجتمع وتطويره وانمائه وتقدمه، مع تحقيق السعادة لكليهما وللمجتمع. وكل ما يمس بهذه الشروط الاولية الاساسية يعتبر اعتداء على او انتقاصا من حقوقهما.

وحيث ان المجتمعات النامية والمتخلفة وحتى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة تعاني من مشكلة حرمان المرأة من بعض حقوقها فان بامكاننا التعميم والقول بان حقوق المرأة مهضومة في تلك المواقع والثقافات. ولأجل ذلك كانت الثورات الوطنية والقومية والاشتراكية تدخل في حسابها دوماً مسألة تحرير المرأة كجزء من التحول الاشتراكي الشامل. ومن هذا نستطيع ان ندرك بوضوح كيف تحولت قضية المرأة من مسألة فردية منعزلة الى قضية مرتبطة مصيريا بمبدأ عام هو تحقيق المجتمع الاشتراكي المتحرر. والمجتمع الاشتراكي هو الذي يوفر الفرص امام الجميع وهو الذي يقضي على

الصراع الطبقي، وهو الذي يضع حداً لاستغلال الانسان للانسان. ولذلك فان مساواة المرأة بالرجل ما هو بالحقيقة الا التفسير الاشتراكي للعلاقات الانسانية بين افراد المجتمع الواحد: اي ان تكون الفرص امام المرأة مثلما هي امام الرجل، وان لا تكون للنساء طبقة منفردة اقتصاديا او اجتماعياً تخضع لطبقة اخرى، وان لا تكون المرأة فريسة او عرضة لاستغلال الرجل او طغيانه.

اما الفوارق الاخرى بين الرجل والمرأة فهي فوارق طبيعية مرتبطة بتركيبها البيولوجي العضوي وبدورها في البيت وطبيعة العمل وبشخصيتها كأنثى توحي بالحنان والحب والانسانية. ولا يمكننا ان نأمر الرجل ان يحمل الجنين او يرضع الطفل الوليد، او يقضي نفس عدد الساعات مع الاطفال وفي البيت بمقدار الزوجة.

وهكذا تصبح المعادلة حيوية دافقة منتجة وليست معادلة جامدة باردة عميقة: للمرأة نفس حقوق الرجل...، وللمرأة نفس الفرص والمجالات..، وللمرأة الدور الحيوي في المجتمع... ولكن، دون التفريط بطبيعتها وانوثتها ومزاياها الانسانية الاخرى..

ولن يستطيع الرجل مهما بذل من قوة ان يحل محل المرأة في كل مجالات اعمالها وابداعاتها.. كما لن تستطيع المرأة ان تحل محل الرجل في كل امكانات عمله وابداعاته. كلاهما يحتاج للآخر، وكلاهما يكمل الآخر..، ولكل منهما المكان الملائم والمكان الأنسب.. والمكان الأمثل. وبعملية طبيعية وغير مفتعلة يتم توزيع عمل الخلية الاجتماعية الى المناسب والأنسب والأمثل.

مساواة المرأة بالرجل هي اذن علاقة الانداد والأمثال..، ولا فضل لأحد على الآخر وهذه هي المعادلة التي تسير بالتراضي والتفاهم والاحترام المتبادل ولا تؤثر على حقوق احد، ولا تفقد الرجل رجولته ولا تحرم المرأة من انوثتها. ومهما تكابر الانسان.. ومهما اغرق في اختراعاته وآلياته (وتقنيته) فانه لن يتمتع بطعم السعادة الحقة والانسانية اللذيذة ما لم يتضمن للمرأة حقوقها العادلة وواجباتها والتزاماتها كفرد متحرر وليس كأمة ورقيق

مستتر..، اذ ان المرأة هي التي تعطي للحياة طعمها وهي التي تفجر ينابيع الحب والفن والجمال..

واذا أدركت المرأة ان الذي يهدد حقوقها هو ليس رجل بمفرده أو مجموعة رجال، اذا ادركت ان الرجل لم يحتل مكان الصدارة فالسيطرة فالاستغلال الا بحكم القوى الاجتماعية والتحولات الاقتصادية التي بنيت عليها صيغ القوانين والأنظمة الوضعية.. اذا ادركت كل ذلك عرفت ان الرجل والمرأة سيتخذان مواقع اخرى تتسم بالعدالة والمساواة من خلال تغير المجتمع الذي يغير بدوره كل قانون أو عرف تعسفي بحق الخلية الاجتماعية وافرادها الرجل والمرأة...

وأخيراً...، فاذا كان عام المرأة قد قارب على الانتهاء فان من واجب المرأة ان تثابر كل عام وكل يوم من أجل حقوقها وان لا تنسى الاسباب الحقيقية لغبنها ولا تنخدع بشعارات سطحية باهرة ولكنها ليست حقيقية مثل «المرأة تساوي الرجل» - اذ في نظري انها تستحق امتيازات اكثر من الرجل.. أو أن «الرجل عدو المرأة»... او «ليعمل الرجل كل ما تعمله المرأة»... أو «لتعمل المرأة كل ما يعمله الرجل» -.

هذه كلمة حق.. بدون مواربة.. وبدون مراءاة...

التراث .. دراسة لا تمجيد

فاجأني وأدهشني شخص كبير العمر بسؤاله: ما جدوى البحث والتنقيب وبذل الأموال الطائلة من اجل اعادة بناء قلعة قديمة او تمثال محطم او مدينة مندثرة؟ وما هذا الحرص والاهتمام المتزايد بالحديث عن التراث وتشجيع الكتاب والباحثين والمحققين فيه؟ »

واحتراماً للتراث والتاريخ - وفرق السن - لم أشأ ان اجيبه هكذا: « أوتريد ان يتنكر لك ابنك، او يهينك حفيدك؟ »، لاعتقادي بأن الانسان لا يحترم نفسه وحاضره ما لم يعرف ماضيه ويؤسس له ذكرى في مستقبله. والاهتمام بالتراث هو اول مظاهر الاحترام للآباء والأجداد. ومن الاهتمام بالماضي ينفتح اول باب أمام الحاضر والمستقبل. والزمن واحد لا يتجزأ: لا بداية، ولا نهاية. الماضي يعيش فينا، ونحن نعيش منه، والمستقبل يعيش علينا.

ولكن، هل ان اهتمامنا بالتراث هو لمجرد الاحترام؟. كان جوابي انه « أول » مظاهر الاحترام، والاحترام « أبسط » فوائده.. وتتبع الاحترام فوائد اكبر وأخطر، وعندئذ نتعدى سلوك الاحترام الى سلوك المعرفة والتعمق، الى العلم والتقدم. ودراسة التراث هي التعمق في اصول وتتبع جذور حضارتنا وهي الاطلاع على قاعدة الارتكاز ونقطة الانطلاق لحاضرنا، وتتبع لسير حضارتنا وتاريخنا. وقد لا يكترث البعض بهذه القاعدة

---

* نشرت في مجلة (الجامعة)، جامعة الموصل، العدد ١، تشرين اول ١٩٧١.

ويقنع بما هو عليه - كما فعل صاحبي - ظناً منهم ان الحاضر بجد ذاته فوق ما يطيقون استيعابه، الا ان مغبة ذلك هو الانفصام والمتاهة والتفاهة، او الغرور: متاهة السائر في قلب صحراء بلا حدود، او الغائص في بحر بلا قاع، وتفاهة الوليد المتنكر لأصله ووالديه، أو الغبي وارث الملايين، وغرور الأحمق الذي يشعر بالعبقرية والجاهل المدعي الحكمة، وانفصام «نركيس» الذي يعشق نفسه فقط.

ودراسة التراث هي الولوج الى عالم المعرفة الواسعة المتكاملة، اذ لا يوجد فرع ولا جزئية من معرفة حالية لا ترتبط بسابقة ادت اليها، والسابقة تمتد الى سابقاتها، أي الى ميدان التراث الذي نحن بصدده، وهو المنبع الأم. والدارس للتراث، في موضوع عمله أو هوايته، هو الوحيد الذي يمكن ان يفخر بامتلاكه لاول مفاتيح المعرفة الحقة، وهو الوحيد الذي يستطيع ان ينقل المعرفة ويكتبها ويعلمها لجيله. واساتذة التاريخ والأدب والفن والشعر الجهابذة المتمرسون هم الذين درسوا التراث وعشقوه. وهؤلاء الاساتذة والمربون هم الذين خلدهم انتاجهم وتلامذتهم وشعبهم. فمدرس الادب الحديث القدير هو من عرف مسبقاً الأدب القديم ايضاً «التراث الأدبي»، واستاذ الفن المعاصر الماهر هو من هضم مسبقاً ايضاً الفن الغابر «التراث الفني». والشاعر المجدد الشهير هو المتمرس الذي سبق ان امتص واستفاد ووعى الشعر القديم فتمكن بعدئذ من تجديده والانطلاق به الى ما وصل اليه.

وهكذا نرى كيف ان التراث ظهير ونصير لعشاق الحرفة وللمبتكرين والمجددين والمعلمين الخالدين. ولم يتمكن «طه حسين»، مثلا، ان يحتل مكانه المرموق في النقد والأدب والتاريخ الا بعد أن نقب بعقله الثاقب طوايا وخفايا التراث العربي، وزاد على ذلك بدراسة تراث غربي آخر هو التراث الاغريقي والفرنسي. ولا يعني ذلك ان كل من درس التراث اصبح من مشاهير الكتاب أو الفنانين أو المربين، الا أن التراث اصبح عنصراً مكملا ومغذياً لمن تتواجد فيه القابليات المطلوبة ليكون ذلك الاستاذ المجيد والأديب الفذ والشاعر والناقد الواسع الافق.

ودراسة التراث تعزيز للعلوم المتعددة، واعلاء لشأن الانسان بحد ذاته. وليس الصعود الى القمر بأروع من اكتشاف «أرخميدس» أو من نظرية «فيثاغورس» او من قاعدة «باسكال». ان التراث العلمي القديم هو الذي أدى بالانسان المعاصر الى أن يعبر الاجواء ويسبح في الفضاء ويسير على كوكب سماوي آخر. والمأساة التي يتحدث عنها شباب الأدب والشعر ومن يتعلق بأذيال «كافكا» و «بروست» ليست بأروع واعمق من المأساة التي تطرق اليها شعراء العرب او كتاب التمثيليات الاغريقية او شكسبير. وعبيد الرومان المساكين هم الآن زنوج جنوب أفريقيا والولايات المتحدة، وأفكار وتطلعات «سبارتاكوس» هي الآن أفكار «انجيلا ديفز» و «مارتن لوثر كنج»، وغيرهم.

التراث، اذن، ليس دراسة لشيء مات واندثر، انه دراسة لأفكارنا البشرية التي تحيا فينا دون أن ندري، فهي اشبه بدراسة اللاشعور او استكشاف قيعان المحيطات أو الحفر في بطون الأرض. ولن تعترينا الدهشة بعدئذ اذا وجدنا بعض النظريات النفسية الحديثة ترجع باللاشعور والسلوك الى أصول سلالية موغلة في القدم. وقد تطرق «فرويد» الى ذلك تطرقاً عابراً عندما وجد بعض محتويات اللاشعور وهي اقدم بكثير من عمر الانسان القصير. أما نظرية «يونج» فتقول، بمنتهى الجرأة: ان هنالك لاشعوراً آخر هو اضخم واوسع واعمق من اللاشعور الفردي الذي ذكره فرويد، وهو «اللاشعور السلالي» الذي تصب فيه او تتشعب منه روافد اللاشعوري الفردي. أي اللاشعور الذي يؤثر في الفرد العربي الواحد، مثلا، يحتوي على طاقات وميول وغرائز يشترك فيها اخوانه العرب الآخرون الآن ومنذ أقدم العصور. وهذا اللاشعور الجماعي يتألف من «تراث» الأفكار والعادات والإتجاهات المندثرة فينا «ظاهرياً». ولعله عند هذا المستوى من اللاشعور السلالي «التراثي» نجد تفاسير لأغرب سلوك بشري يحدث في السبعينات من قرننا العشرين، بل لعله عند هذا المستوى من اللاشعور ايضاً تلتقي اعرق التراثات وتمتزج في تراث بشري واحد. ولكي لا نستغرق في حديث عن علم نفس صرف، نرجع الى التراث لنقول: ان دراسة التراث هي دراسة لأنفسنا ايضاً وليست لأشياء ماتت، فليس ثمة موت الا للاجساد، اما

الفكر والفن والعلم والأدب فقائم وأزلي في الوجود بالمفهوم الفلسفي، وهو قائم وأزلي بالمفهوم البيولوجي ايضاً، لأنه ثبت لنا أن الجينات والكروموسومات هي نابعة من أصل كروموسومات وجينات اجدادنا وسلالاتنا، لكنها تتجمع وتتجدد بوسائل وعلاقات متعددة ابد الدهر، وبذلك تختلف امكاناتها وعطاءاتها وكذا طفراتها.

ودراسة التراث لا تستوجب او تحتم تمجيد التراث. وشتان بين الدراسة والتمجيد. ولعل مكابرة البعض واهمال الآخرين وبرود البقية من المتنكرين للتراث خلط بين الدراسة والتمجيد. والحقيقة التي غابت عن هؤلاء، ان الدعوة الى احياء ودراسة وتحقيق التراث لا تعني الدعوة الى تمجيده بالضرورة، لأن التمجيد او النقد او الذم يتوقف على نتيجة دراستنا له. وقد نقع من تراثنا على الغث والسمين، والجيد والرديء، والصحيح والخاطىء. وعندئذ فقط يحق لنا أن نمجد أو ننقد. أن التمجيد لذاته - وجزافاً - سلوك مريض يرفضه المصلحون والسياسيون والمفكرون. أما الدراسة فهي تعليم ومعرفة واكتشاف: تعليم للنواحي الجيدة، ومعرفة بأخطاء الاقدمين، واكتشاف متواصل لزوايا منسية وحقائق ضائعة وجوانب مخفية. ومن مجموع هذه المزايا يتم البناء الحاضر ليكون متكاملا وواعياً وحذراً من المزالق والثغرات. فاهتمامنا بالتراث هو واجبنا نحو ماضينا وتجاه حاضرنا ومن اجل مستقبلنا. والإهتمام غير التمجيد او الذم. فلكلٌ مقامه ومقاله. والواجب والانصاف يدعونا ان نمجد «ونستفيد» متى اقتضى الامر ذلك، وأن ننتقد «ونستفيد» متى اقتضى الأمر ذلك أيضاً. وهذه هي الخلفية التي يستند اليها ويحتمي بها كل انتاج فذ معاصر. وليس من الضروري ان الخلفية بارزة للعيان طالما كانت ثمة صلة روحية كامنة بين الاثنين. ولذلك قلنا: ان التراث «ظهير» لمن يريد والظهير هو الذي يمثل «الخلفية» التي يتحدث عنها كثيرون. ودراسة التراث لا تعني ايضاً التعصب والضيق الفكري، لأن تراث ثقافة ما اعلاه وتعزيز لتراث ثقافة اخرى قومية اخرى. وما اجل والذ ان يلتحم التراثان والثلاثة والاربعة في مساجلات ومطارحات ومناقشات وحفلات ومآدب عقلية لمزيد من التعاون والأخوة البشرية والعدالة الإجتماعية.

وهكذا يكون التاريخ والتراث علم الحركة وعلم الحياة وليس علم الأموات والحوادث المتفرقة. لذلك، اصبح احياء التراث من الواجبات والمهمات الاساسية للجامعات ووزارة الثقافة والاعلام، وهو ما يجري تنفيذه، باصرار حالياً، في وطننا العراقي.

بقي أن اعترف، واشارك بعض المفكرين والآخرين في التعبير عن مللهم وتذمرهم من بعض الكتابات «التراثية». والحقيقية، ان القارىء المعجب بالتراث لا يستسيغ تلك المقالات «الانشائية» التي تقول: «ولد فلان بن فلان.. ومات.. وعمل كذا وكذا.. وافعاله كذا وكذا...». فالكتابة عن التراث تتطلب التجديد والاضافة على ما سبق نشره، وتتطلب الكشف عن طرائف وحقائق، أو اثارة نقاش وجدال مثمر. ولعل النفور الظاهري للبعض من التراث يرجع الى جمود وتكرار بعض الكتاب، والخطأ ليس في التراث بل في بعض كتابه.

التراث يعلمنا الكثير، واول ما يعلمنا التواضع وتجنب غرور القرن العشرين وهذه همسة متواضعة في آذان الذين يكابرون ويتجاهلون، وينفخون في حفنة رماد ظانين انهم سيضرمون ناراً عظيمة من شعر وأدب وفن دون حاجة لشرارة ووقود ومؤونة من «تراثهم» العريق.



تكاتف الأجيال لا تنازعها
هو هدف العملية التربوية السليمة

سئل الفيلسوف ديوجينس:
أين غناك ومقتناك؟
فأومأ الى تلاميذه وقال: عند هؤلاء

عندما زار كلية طب الموصل أحد الاساتذة المربين، ورأى الابنية القديمة للكلية مجاورة لأبنيتها الحديثة علّق قائلا:

« حبذا لو تكاتف الناس مثلما اجتمعت هذه البنايات القديمة والحديثة لخدمة غرض واحد... وأهداف واحدة.... ».

وقلت له: هذا هو موضوع مقالتي التي اكتبها...

ان تلاحم وتكاتف الأجيال في المجتمع الواحد دليل تطور الأمة وتطلعها الى اهداف سامية، أما تنازع الأجيال وتنافرها فعلامة التناقضات والاختلافات والتمزق. وصحيح ان التناقضات قد تكون احياناً مصدر التجديد وينبوع الافكار وشرارة انطلاقات اخرى... الا ان هذه التناقضات الطبيعية « البريئة » التي تدور بأشكال الحوار المباشر أو النقاش المفتوح أو تبادل وجهات النظر هي غير النزاعات التي تنطلق من نوازع العناد او الاصرار الأصم او المكابرة خدمة لأغراض خبيثة. ولدينا مثال حي على التقاء وتلاحم الأجيال في حقل التعليم الجامعي عندما تدور العملية التربوية بين الاساتذة والطلبة...

★ نشرت في مجلة (الجامعة)، جامعة الموصل، تشرين اول، ١٩٧٦.

علاقة الطالب بالاستاذ

وعلاقة الطالب بالاستاذ هي محور العملية التربوية في جميع مستويات التعليم. الا ان اعتبار الجامعات مصادر اشعاع علمي وفكري وقومي واجتماعي، جعل من علاقة الاستاذ الجامعي بالطالب هدفاً للدرس والتمحيص، ثم التعديل والتقويم، وتحقيقاً لأهداف الثورة والتنمية القومية.

وفي يوم الطالب، نحتفل «بالطالب» ونؤكد على دوره الفعال كعنصر شاب يعتمد عليه بناء المجتمع الاشتراكي في الحاضر والمستقبل..

وفي يوم المعلم، نحتفل «بالمعلم» ايضاً ونؤكد على دوره الفعال كعنصر تربوي يرتبط به إعداد جيل الحاضر والمستقبل..

ونكتشف وبصراحة - أن ما بين الطالب والمعلم فجوات وسلبيات تقلق كل مخلص من المثقفين والمربين والقادة والسياسيين. وقد انتهت القيادة الحكيمة من مرحلة تشخيص ذلك، اذ اشارت وبدقة الى مواطن المرض والعلة منذ فترة طويلة.

ومنذ بداية العام الدراسي ١٩٧٧/٧٦ شهد القطر حملة جبارة تولتها وزارتي التربية والتعليم العالي والبحث العلمي من اجل الانتقال من مرحلة التشخيص الى مرحلة المعالجة الجذرية والتطبيق العلمي. واصبحت الندوات والاجتماعات والمؤتمرات اشبه بخلايا النحل الدائبة العمل والتي تدور حول كيفية:

١ - جعل الاستاذ الجامعي معلماً مربياً ملتزماً هادفاً مواكباً ومتحفزاً لما يجري في الساحة العربية لتحقيق المجتمع العربي الاشتراكي الموحد

٢ - جعل الطالب الجامعي في مستوى الشاب الوطني النظامي الثائر المكرّس جهوده لاستيعاب واقع أمته العربية ومشكلاتها والمتزود بروح الكفاح والتضحية.

٣ - جعل الجامعة ميداناً لاعداد جيل يجمع بين العلم والثورة ومعهداً حيوياً يخلق الشخصيات المتكاملة المتوازنة المشبعة بروح المسؤولية

٤ - جعل الجامعة رافداً دافقاً يتغلغل في كل مؤسسات الدولة لتصعيد

البحث العلمي التطبيقي المنتج والبناء، ودفع عجلة التحول الاشتراكي للوطن العربي الموحد.

ورقة عمل

وكان مؤتمر عمداء الكليات ورؤساء الاقسام قد عقد في ٢٥ - ٢٦ شباط ١٩٧٦، وناقش ورقة العمل والتوصيات التي اعدتها لجنة خاصة في جامعتي بغداد والمستنصرية حول كيفية تعزيز دور الاستاذ الجامعي في العملية التربوية والذي حددت له ثلاثة ادوار رئيسية هي:

أ - دوره الفكري.

ب - دوره العلمي.

جـ - دوره التوجيهي - التربوي.

وما هو متوقع منه كمجمع ومحرك لهذه الادوار الثلاثة. وكان من البديهي ان المعلم لن يعمل في فراغ، ولن يمارس ادواره على الورق والمكاتب.. أي أن كل الانشطة في هذه المجالات تعتبر قلاعاً من رمال ان لم تتعدى دائرة الاحلام وتنتقل الى دائرة العمل والتطبيق. وقد دارت المناقشات حول علاقة الاستاذ بالطالب واستعراض المربون مختلف السلبيات والايجابيات.. وبرزت المعاذير.. والمطاليب، كما برزت الاصوات الحارة المنادية بضرورة الإسراع في إيجاد الحلول لها.. والاعتراف بالأخطاء.. والاتجاه الى النقد الذاتي.. والى التأمل قبل الانفعال.. والى الدراسة قبل الدفاع أو الهجوم. لكن خصب المناقشات وكثرة الآراء في الندوة المذكورة حتمّت على المؤتمرين ارسال بقية مقترحاتهم وآرائهم مكتوبة الى الندوة استكمالا لجميع جوانب هذا الموضوع الخطير. وما أود التطرق اليه ههنا يتناول بالحقيقة آراء اخرى ومناقشات وتعليقات حول دور الطالب والاستاذ معاً في كيفية التوصل الى اسلم الصيغ واكثرها عطاءً لخدمة الجامعة في هذا المجال....

بمن نبدأ؟..

والسؤال الذي قد يتبادر الى الذهن هو:

اذا كانت العملية التربوية ذات الشقين: الطالب والاستاذ. فبمن نبدأ؟ والى من نوجه الاهتمام اولا؟.. الطالب أم الاستاذ؟...

انني اميل وبدون تردد - الى اعتبار ان المعالجة الصحيحة تبدأ باختيار واعداد المعلم الجيّد.. المعلم المرشد... واميل الى ان تكون هذه اول خطوة تسبق كل الخطوات، لأن الطالب هو الذي يحتاج الى معلمه، وهو الذي يقوم بدور الاصغاء والتقبل والتوجه، فالاحرى بنا اذا ان نبدأ بالاستاذ كما نفعل الآن.. ولا بأس ولا ضير أن نبدأ بالاثنين معاً اذا كان ذلك ممكناً وعملياً. وهل من المنطق ان اطلب من الطالب ان يكون تابعاً لمعلم لا يعتمد عليه.. او مقتدياً بمعلم لا يجيد التوجيه الصحيح.. او منقاداً لمعلم يجيد وضع العراقيل وبذر الشكوك وزعزعة الثقة بمسيرة الثورة؟.. لكننا اذا ضمنا ان الغالبية العظمى من الاساتذة هم في مستوى طموحات الثورة.. فاننا نطمئن الى أن الطلبة سيكونون في أياد أمينة.

ان التعليم ليس بالأمر الهين. فكل انسان يمكن ان يكون معلماً لفترة من زمن: الطفل قد يعلّم الكبير من خلال حركة او كلمة. والتلميذ الصغير.. والطالب الجامعي يمكن ان «يعلما» ويكونا مصدر الهام وتجربة للمعلم من خلال العملية التربوية واللقاءات والمناقشات. وكذلك يمكن للعامل أو الموظف أو المزارع ان يكونوا مصدر معرفة وتجربة لغيرهم لحقبة من الزمن.

إلا أن المطلوب هو: ان يكون كل معلم انساناً بحق.. انساناً عربياً مستوعباً واعياً قائداً عربياً في هذا المجتمع الذي تحرر من عبودية الاستعمار والشركات والاحتكارات والاتفاقات الاستسلامية. والمعلم الانسان هو الذي يمكن ان يصنع العجائب وهو الذي يستطيع ان يبذر في عقول طلبته المعاني الثورية ممزوجة بالعلم والمعرفة المطلوبة في كل دراسة جامعية..

وأمام أزمة قلة الكادر التدريسي، فان عملية «اختيار» الاستاذ الجيد تصبح اشبه بالمحال... اما عملية تطوير واعداد الاستاذ الجيد فهي اقرب الى واقعنا. وهنا يجب ان نفكر «بتعليم الكبار» أصول التربية القومية التقدمية والنفسية السليمة من خلال الندوات المتكررة أو الدورات الخاصة القصيرة.

بين جيلين :

ومما لا شك فيه ان المعلم ينتمي الى جيل هو غير جيل الطالب. فاختلاف العمر والظروف والخلفية لا بد وأن تلقي ظلالها وآثارها على سلوكية الاستاذ والطالب. وهذا الاختلاف بين الجيلين شيء طبيعي تؤكده علوم الفسلجة والنفس والاجتماع. ولدينا نماذج حية مصغرة للجيلين المختلفين في كل بيت واسرة.. بين الآباء والامهات من جهة والابناء والبنات من جهة اخرى. فاذا كان اختلاف الأجيال شيئاً طبيعياً، فما هو اذاً سرّ المرض والخلل؟..

والخلل هو في انعدام التفاهم بينهما. العلة هي في نسيان الكبير مشاعره وآماله واندفاعاته عندما كان في عمر ابنه. المرض هو في تجاهل الشاب حكمة وتجارب من سبقوه في الحياة. فاذا اردنا تصحيح العملية التربوية فان علينا ان نجعل من الكبير (الاستاذ) متفهماً لافكار وآمال وتطلعات الشاب (الطالب)، والعكس بالعكس...

والمسألة ذات الشقين تتطلب خلق ثقة وبناء جسور: ثقة الطالب باستاذه، وبناء جسور بين جيل متقدم مسنّ وجيل لاحق يافع. وعندما يجد الطالب ان استاذه يريد له الخير ويزوده بالمعرفة الحقة وينقل اليه آمال امته بامانة وينير له الطريق باسلوب مشبع بالاحترام والمحبة والاخلاص... وعندما تتلاشى العلاقات السلطوية والمتعالية.. وعندما يحل الحزم والعطف محل التقريع أو الإهانة في كل عملية تربوية.. عندئذ يمكن أن تستقر وتمتد الجسور وتزدهر الثقة وتمتد جذورها في تربة وطنية نقية خالية من السموم والادران والملوحة.

دور الطالب

واذا انتقلنا الى دور الطالب في اكمال العملية التربوية فاننا سنجد انفسنا نواجه حل ازمة الثقة واذابة الجليد بين الطلبة والاساتذة. فالمعروف ان اخطر عقبة تعترض التمهيد لعلاقة متينة متماسكة بين الاستاذ والطالب هي التناقضات بين الجيلين، وبقايا الفكر البرجوازي والاحتماء وراء مقاييس

الروتين والتستر وراء «العلمية الصرفة» لدس الأفكار المعادية لدى (بعض) الاساتذة، بالاضافة الى أن (بعض) الطلبة قد اصيبوا بردة فعل تجاه هذه الظواهر المتفرقة هنا وهناك. وشعر البعض منهم بالميل الى الرفض واهمال التراث والتقاليد والأنظمة الجامعية.

فالطالب المعاصر يمر بمرحلة دقيقة وحرجة يجب ان نحتاط لها وهي عديدة، اذكر منها على سبيل المثال: الترف والاتكال تجاه المبادرات العظيمة للحكومة الوطنية في توفير التعليم المجاني. وانني اخشى الآن ان يتخرج طالب الطب او الهندسة مثلا وهو لا يملك كتاباً شخصياً يستند عليه كمرجع في حياته العلمية. واخشى ان يكتفي الطالب ببدلة واحدة من الزي الموحد تزوده بها الدولة - ولو بشكل سلفة - ولا يفكر بتأمين بدلة اخرى للطوارىء.. وانني اخشى ان يعتبر الطالب الأقلية (غير المثالية) من الاساتذة كانها الأغلبية فيتناسى تقاليد أمته العربية العريقة في احترام الكبار ومبادرتهم بالتحية واعتبار فارق السن والخبرة له اهميته. واخشى ان يتصور بعض الطلبة ان الدعوة الى احياء التراث تقتصر على الآثار والفنون الشعبية او الأدب، بينما التراث الحقيقي يشمل كل جوانب الحضارة ومنها التمسك بالاخلاق والمثل. واخشى ان يتعالى الطالب على استاذه الذي درسه في الصف الأول والثاني بعد أن وصل الى مرحلة الرابع أو اكثر (في كليات الطب والصيدلة).

صحيح ان الاستاذ الجيد هو الذي يفرض على الآخرين احترامهم له.. وصحيح ايضاً أنه لو بادر طلبته بتحية الصباح وغيرها فانه سيشعرهم بالخيبة والحرج لأنهم لم يقوموا بواجبهم تجاهه.. إلا اننا يجب أن نقوم بحملة توعية لشبابنا الصاعد ليس في نطاق الجامعة بل في ميادين الحياة العديدة الاخرى: من كتب.. فعروض تلفزيونية فمسرح.. الخ عندئذ فقط يشعر الاستاذ بالارتياح والدفء لأنه يلمس مكانته لدى تلامذته ليس فقط في رحاب الجامعة واثناء القائه المحاضرة الرتيبة التي لا بد من الاصغاء اليها لانها مثبتة في جدول الدروس، بل في كل ظرف وزمن. وهكذا نقيس بقية المبادرات... وهكذا تقترب الاجيال من بعضها على أساس الفهم المتبادل

والتفاهم البعيد الاهداف والجدال البناء والتناقض المفجر للتجديد...

وأخيراً...

فان التركيز على أهمية العملية التربوية ودور الاستاذ الجامعي في تعزيز العلاقة بينه وبين الطلبة ودور الاتحاد الوطني لطلبة العراق في ضبط وتطبيق الانظمة والتعاليم الجامعية، هي العملية الحتمية التي يجب انجازها لكي نجتاز مرحلة الثقة وازمة النزاع والاختلاف الى مرحلة التلاحم والتكاتف والتفاهم والايمان والثقة.

وعندما تلتقي الأجيال وتتلاحم... وعندما نسير يداً بيد في درب واحد، فعندئذ فقط يمكن ان نقول ان العملية التربوية اصبحت بخير وعافية. فقط يمكن أن نطمئن بأن تفاهم الأجيال مع بعضهم البعض هو حماية وامتداد للثورة القومية المنشودة.



مقاييس الذكاء، وضرورتها للمجتمع العربي الحديث

قد يظن القارىء العزيز أن البحث في موضوع مقاييس الذكاء في هذه المرحلة من تطور المجتمع العربي سابق لأوانه او متطلب كمالي لا يستوجب الاهتمام الآني. وقد يكون كذلك الآن بالنسبة الى متطلبات حيوية اخرى.. ولكن ذلك لا يمنعنا من الاشارة اليه والاستعداد له لأنه سيكون يوماً ما من ضروريات المجتمع الاشتراكي العربي الناهض، فالاشتراكية العربية التي ترمي الى تحقيق العدالة الإجتماعية وتهيئة الفرص أمام افراد الشعب ستجد أن مقاييس الذكاء وسيلة دقيقة وحساسة لتحقيق فرص اكثر واستكشاف مواهب لم تكن في الحسبان وتوجيه امكانات في الوجهة المناسبة... وبذلك يزداد الزخم الإجتماعي نحو انتاج اكفأ واهم. ومنعاً للالتباس الفني يجب أن اقول بأن مقاييس الذكاء Intelligence tests هي محدودة بميدانها وفوائدها. وأن المقصود هنا هي المقاييس الأهم والاشمل لنواحي النفس البشرية وهو ما يعبر عنه بمقاييس النفس Psychological Tests ، ومقاييس الذكاء هي جزء منها وواحدة من نواحيها المتعددة. وقبل ان ابين الصعوبات الفنية التي سنجابهها لتحقيق ذلك أود أن استعرض النواحي التي تستفيد منها الاقطار المتمدينة الاخرى باستخدام المقاييس النفسية:

١) - في حقل التربية والتعليم تستعمل مقاييس الذكاء لغايات متعددة:

أ - تصنيف الاطفال حسب درجة ذكاءهم ومدى استعدادهم للتقدم الدراسي، ثم توجيههم في المستقبل في النواحي التي يجيدونها والمتوقع

---

* نشرت في مجلة (الاقلام) العراقية العدد ٥، كانون اول ١٩٦٥.

نجاحهم فيها. فالتلميذ المحدود الذكاء يوجه الى دراسة تتناسب مع ذكائه او الاكتفاء بما توصل اليه او توجيهه الى التدريب المهني. والتلميذ الناقص العقل يرسل الى مدارس خاصة تتولى تعليمه بدل ان يربك ويعرقل سير التدريس في المدارس الاعتيادية.

ب - اختيار الطلاب المتقدمين الى الكليات والمعاهد المهنية. فاختيار الطلاب المتقدمين الى دراسة عليا يعتمد على المقابلة الشخصية ودرجات البكالوريا والتي هي نوع خاص من مقاييس الذكاء ذات النواقص العديدة، بينما توجد مقاييس خاصة تستخلص قابلية الفرد في موضوع من المواضيع وتقيس درجة مقدرته اللغوية او الحسابية او الهندسية او المهنية او الفنية او الموسيقية.. الخ... الخ.. وبذلك تختار الكلية الطلاب الذين يبرزون في نواحيها الخاصة، وفي المعهد المهني نفسه ينسق المتقدمون حسب قابلياتهم الصناعية والفنية فهنالك مقاييس تشير الى امتياز الفرد بالنجارة او الحدادة او التصميم او الزخرفة.. الخ.

ويجب ان نؤكد بهذه المناسبة ان المواجهات الشخصية للطلبة والانطباعات والتقديرات الذاتية هي مقاييس عاجزة عن معرفة ذكاء وقابلية الشخص بصورة دقيقة، ومجال الخطأ فيها واسع، ولكنها قد تصيب. مثال على ذلك طالبة زنجية قدرت ذكاءها مديرة المدرسة بـ ١٠٠، بينما ظهر من مقياس الذكاء بان ذكاءها الحقيقي هو ٢٠٠، فمقياس الذكاء يجنبنا كثيراً من اخطاء الحكم الشخصي.

ج - اجتناب المشاكل التربوية مع التلاميذ ذوي الذكاء المفرط او الذكاء تحت العادي. ولايضاح هذه الناحية اورد ثلاثة أمثلة على ذلك.

المثال الأول - تلميذ مؤدب مطيع متتبع لدروسه يسهر ويكد ولكن درجاته تتراوح بين النجاح والرسوب... يشكو من صداع والآم جسمية وقلة الشهية، ويدور بين الاطباء الى ان يعرض على طبيب نفساني فيختبر ذكاءه ويجد بأنه دون المعدل بقليل، وان اعراضه الجسمية هي نتيجة اجهاد عصبي ومحاولة مخلصة من الطالب

لاجل اللحاق بزملائه الآخرين.. فينصح الطبيب والديه وادارة المدرسة بأن يغير موضوع دراسته او توجيهه الى الفرع او المهنة التي تناسبه وتريحه وتسعده.

المثال الثاني - تلميذ عمره عشر سنوات تحيله ادارة المدرسة رسمياً الى الاخصائي بالامراض النفسية لكونه «تلميذاً لا يتجاوب مع اعمال المدرسة.. وشكس.. وكذاب..». وتدور بين الطبيب النفساني والتلميذ المحاورة الآتية:

الطبيب - ما الذي يبدو لك من مشاكلك الرئيسية في المدرسة..؟
التلميذ - بضعة أسباب...
الطبيب - اذكر لي واحداً منها..
التلميذ - أوه... لا أدري ماذا اقول.. ولكن المعلوم ان من السيء ان يرتكب التلاميذ اخطاء، ولكن من الأسوأ بكثير ان يرتكب المدرس اخطاء ايضاً. مثلا.. كنت جالساً استمع الى معلمتي وهي تشرح للطلاب كيف ان الالمان اكتشفوا اول آلة للطبع وأن «جوتنبرغ» هو اول مخترع لها.. وتمالكت اعصابي برهة ثم نهضت قائلا: «كلا.. ان الصينيين هم أول من اوجد الآلة الطابعة قبل زمن جوتنبرغ، عندما كان الالمان برابرة...» وامرتني المعلمة بالجلوس، ثم اهانتني امام الصف..

وتبين بعدئذ بأن درجة ذكاء ذلك الطفل ١٦٥، وان درجة ذكاء المعلمة كان ١٢٠..

المثال الثالث - ارسل طفل عمره ثمان سنوات الى الطبيب النفساني لانه احدى المعضلات التربوية في المدرسة.. ودار بينهما الحديث التالي:

الطبيب: ما هي مشكلتك في المدرسة؟
التلميذ: مشكلتي الحقيقية ليست في المدرسة بل مع مأمور المكتبة..
الطبيب: وكيف...

الطفل: حسناً.. أنا اذهب الى المكتبة لأطالع كتباً بالميكانيك لانني افكر بطريقة جديدة لتبديل (جهاز التبديل) الى الخلف، ولكن مأمور المكتبة يقطع علي الطريق ويقول - «أين أنت ذاهب؟.. ان مكانك ليس في قسم الميكانيك بل قسم الأطفال..». وعندئذ اضطر الى الذهاب الى قسم الاطفال ولا امكث طويلا لانه لا توجد كتب حقيقية كما اريدها.. فهل تستطيع يا سيدي الطبيب ان تعطيني توصية للذهاب الى اقسام المكتبة الاخرى؟...

ان ذكاء الطفل المذكور كان ١٧٨...

وعليه فالاهتمام بالاطفال الموهوبين ضرورة تربوية واجتماعية، اذ قد ثبت بأن الأطفال الذين يتراوح ذكاؤهم بين الـ ١٦٠ - ٢٠٠ يصبحون في المستقبل من لوامع المجتمع اذا عرف الآباء والمدرسون كيف يعاملونهم.. فذكاؤهم الخارق هو بالحقيقة «عقبة» أمام تكيفهم الاجتماعي قبل اكتشاف ذكائهم، ومقاييس الذكاء هي الوسيلة لاكتشافهم.

٢) - في حقل الطب النفساني والامراض العصبية تستعمل المقاييس النفسية في النواحي الآتية:

أ - تشخيص ذوي النقص العقلي وتصنيفهم الى درجات العته والبله والغباء.. ثم توزيعهم الى مدارس خاصة او مستشفيات خاصة لتتولى تدريبهم ورعايتهم. ويجب ان نذكر ان اول مقاييس للذكاء فكر بها علماء النفس كانت من اجل اكتشاف المتأخرين عقلياً وعزلهم وتربيتهم، وكان أول مقياس صمم في فرنسا قبل اكثر من قرن.

ب - اصبحت مقاييس النفس جزءاً روتينياً من الفحص السريري للمرضى النفسيين ويستخدم قسم منها لمساعدة التحليل النفسي للاطفال والبالغين، فهنالك التصاوير والاشكال والرموز التي يشرحها المريض فيستنتج المحلل النفساني عقدته من طريقة شرحه. ومن هذه المقاييس النفسية ما يدعى الـ TAT و «رورشاخ».

٣) - في الحقل الاجتماعي تستعمل مقاييس الذكاء كما يلي:

أ - في المصانع والمؤسسات الإنتاجية توزع المناصب حسب قابلياتهم الفنية والعملية سواء أكان كاتب اضبارات او رئيس عمال او مدير عمل...

ب - تهيئة وتنسيق الخدمات الاجتماعية لذوي النقص العقلي او العاهات الحسية...

ج - اختيار اطفال التبني حسب ذكاء الطفل لكيلا يتبنى الوالدان طفلا غبياً..

٤) - في الجيش:

أ - توجد اختبارات عامة اولية للمكلفين بخدمة العلم مهمتها استطلاعية، لكي تكتشف بصورة مبسطة ذوي النقص العقلي او الاضطراب النفسي الشديد فترفض من ترفض وتختار الصالح، لأن الجندي الغبي او المضطرب الأعصاب ضرر لنفسه وزملائه وفرقته.

ب - والخطوة التالية هي مقاييس ادق للنفس والكفاءات والمواهب لدى الجنود، وبذلك يتم تصنيفهم وتوزيعهم الى الصنوف التي تلائم ذكاءهم. فصنف المخابرة يحتاج الى نوع من القابلية وسرعة البديهة واللغة... وصنف المدفعية الى قابلية من نوع آخر... كذلك القوة الجوية والنهرية.. الخ.

ج - المهمات الخاصة في الجيش تحتاج الى شخصيات لها مواهب خاصة.. مثال بسيط هي فرق المغاوير والضفادع البشرية. فهؤلاء هم نخبة من العسكريين الذين اجتازوا امتحانات واختبارات نفسية قاسية كمقاييس الصبر والجرأة وسرعة التكيف للظروف المفاجئة...

٥) - في ميدان علم الفلك وتسابق الفضاء، نجد ان مقاييس النفس تلعب دوراً حاسماً وفعالا في اختيار رواد الفضاء، ولنقل ان هذه الاختبارات هي احدى الاختبارات الخاصة لصنف الطيران في الجيش، فأبطال الفضاء الذين يرسلون في الأقمار الصناعية هم حصيلة مئات المرشحين من الطيارين لارتياد الفضاء، وعليهم ان

يختاروا مقاييس نفسية عديدة ودقيقة بالاضافة الى النجاح في الفحوصات الطبية الجسمية.

ان الفوائد التي سردتها آنفاً بايجاز هي التي يجب ان نتطلع الى تحقيقها في مجتمعنا العربي المتطور. ولكن... هل بالامكان - كما قد يتبادر الى الذهن - استخدام مقاييس الذكاء الأجنبية لاختبار الفرد العربي مثلما بالامكان استخدام الياردة، او المتر في أية بقعة من العالم؟.. كلا، فالعقل البشري والنفس الانسانية عالم بذاته، وهو مرتبط بأرضه ومحيطه وتقاليده ووراثته.. والمقياس الذي يصلح للفرنسي لا يصلح للايطالي ولا للمكسيكي، بل ان المجتمعات الصغيرة في المجتمع الكبير تحتاج الى مقاييس خاصة بها. لذلك فان من الخطأ استخدام مقاييس ذكاء أجنبية بل يجب استنباطها وتنسيقها ووزنها بميزان عربي نابع من البيئة العربية وقادر على استجلاء الذكاء والامكانية الخام دون ان يكون للمال او البيت او المدينة تأثير عليها.

ومع ان بعض مقاييس الذكاء الأجنبية ثبتت صلاحيتها لدى شعوب اخرى، أي انها تكاد ان تكون مقاييس عالمية Cross-Cultural Tests الا ان ذلك لم يثبت بصورة قاطعة ولم يتعداه الى المقاييس العديدة الاخرى. فمثلا هناك مقياس (الاشكال المتدرجة Progressive Matrices تأليف (رافن) استعمل اولا في انكلترة ثم طبق على بقية اجزاء بريطانيا، ثم استعمل في بعض اجزاء الولايات المتحدة.. واستعمله طبيب نفساني اسمه (ريمولدي) في الارجنتين وثبتت فائدته ودقة اختباره للبيئات المختلفة. وقد طبق هذا الاختبار على بعض طلاب جامعة الموصل وظهرت النتائج كما يمكن توقعها من طلاب الجامعة، ولكن اثبات صلاحيته للنفسية العربية يحتاج الى اختبار مئات بل آلاف من الناس ثم فحصها بطريقة احصائية ودقيقة. وهنالك اختبارات اخرى امريكية استعملت في الجيش وجزائر الهاواي وفي بعض بيئات افريقية الوسطى وتأيدت صلاحيتها. ان جميع هذه المقاييس (العالمية) قليلة جداً، ويقابلها عشرات المقاييس التي تقتصر على بيئة خاصة. ولذلك فان من الضروري ايجاد مقاييس خاصة بالشعب العربي لأنه لا يوجد مقياس يخلو من تأثير البيئة او ما يطلق عليه Culture Free .

ان بالامكان طبعاً تحوير المقاييس الاجنبية لتتلائم مع البيئة العربية بعد التدقيق والتمحيص، وهي وسيلة سريعة وسهلة، وان كان الافضل والاصوب ان نجد لانفسنا مقاييس خاصة بنا، وما نحتاجه لاجل ايجاد مقاييس نفسية للفرد العربي هي فرق متجانسة متكاتفة من الاطباء النفسانيين والتربويين وعلماء الاجناس واخصائيين بالاحصاء ومساعدين عديدين. وما نعتقده اليوم سنحصل عليه غداً.

بقي أن نقول للقارئ العزيز بألا ينخدع بما يجد من مقاييس النفس التي تنشرها الجرائد والمجلات فهي اختبارات للتسلية مليئة بالاغلاط غايتها قتل الفراغ والهاء القارئ، وهي مستمدة من مقاييس الذكاء العلمية مع تحويرات واضافات حدسية تخمينية لا تصلح للقياس العلمي بها، كما انها أجنبية الأصل.



الثقافة بين الثورية والليبرالية

عالمنا الارضي صغير.. واصبح اصغر من ذي قبل بفعل المواصلات السريعة والتكنولوجيا الحديثة والاقمار الصناعية...

عالمنا الان اشبه ببيت ذي بضعة طوابق وعدة غرف.. اذا اهتز فيه الطابق او حدث ضجيج في غرفة منه شعر به ساكنو الدار جميعاً..

ومما لا شك فيه أن تأثير الثورة العربية في الثورة العالمية.. يعني تأثير الثقافة الثورية في العالم.. وتأثير الثقافة العالمية فينا ايضاً..

والثقافة اليوم هي معلومات عن البيت الصغير - الكبير.. عن هذه الدنيا وما فيها. ونحن الان بحكم وجودنا في العالم الصغير، وبحكم وجود قوى التناقض.. والخير والشر.. وبحكم وجود الصراع الخفي والظاهر الذي تشنه قوى الصهيونية والامبريالية على الشعوب الآمنة الناهضة النامية.. بحكم كل ذلك.. اصبحت الثقافة بالنسبة لنا سلاحاً فكرياً ندرس من خلاله تحركات اعدائنا ونعرف مواقعنا وجهود قيادتنا الثورية في كل محور وأي اتجاه...

والثقافة اليوم في العالم الثالث من ضرورات الحياة والبقاء والنضال، لأن عصرنا هو «عصر الثقافات والايديولوجيات».. فهي ليست كثقافة الانسان الامريكي او السويدي او الانكليزي.. لأن الانسان الغربي هو في موقع آخر وفي ظروف اخرى.. وفي اطار طبيعة النظام الذي يعيش فيه. وبالنسبة للغربي في نظام ليبرالي - استعماري تصبح الثقافة ترفاً فكرياً أو

* محاضرة القيت في الموسم الثقافي لكلية طب الموصل في آذار ١٩٧٨.

هواية شخصية.. أو أداة تخريب وهجوم على الوجود العربي..

لذلك لا نستغرب ان وجدناه مختصاً وغير مثقف.. او وجدناه جامداً جاهلاً.. او وجدناه مواطناً لا أبالياً.. لا انسانياً لا يتجاوب مع مشاعر اخيه الانسان المسحوق المعذب في بقع اخرى من العالم.

أما الثقافة بالنسبة لنا في العالم العربي، فانها ضرورة لا محيد عنها. فالاختصاص والدراسة العلمية الجامعية الصرفة لا تفي بأغراض أمتنا واهدافنا السامية البعيدة المدى.

لذلك كان شعار «الجامعة من أجل المجتمع» حتمياً لأن الجامعة التي يتجاوب تعليمها مع خفقات قلب المجتمع هي الجامعة التي تسعى الى التثقيف والتربية الوطنية الثورية اضافة الى التعليم المنهجي الصرف..

ولنكن صريحين مع أنفسنا قليلا.. ولنكن قضاة مع ذواتنا ونتساءل: هل اننا مثقفون بما فيه الكفاية؟.. وان لم نكن كذلك فعلى من تقع اللائمة؟.. وأجدني أجيب، ان اللوم يقع علينا جميعاً.. على المواطن العربي اولا - والطالب الجامعي ثانياً.. وعلى الاستاذ والكلية والجامعة اخيراً.. وسأعود الى هذه النقطة بعد برهة...

أعود فأقول، ان الثقافة والاطلاع على الفكر العالمي من احد مقومات وأسس المجتمع النامي. لأن المجتمع النامي لن يحقق آماله في التكامل العادل السعيد الا بالثورة.. والثورة حركة ممتدة عبر الزمن وليست عملية سريعة آنية تستغرق اشهراً وأيام..

الثورة هي السعي والتخطيط والتنفيذ لأهداف الأمة.. هي تغيير خالد في كل يوم وساعة. والتغيير هو محصلة جهود كل افراد الشعب لتأدية واجباته في خط الثورة..

والفرد الثوري والطالب الثوري، هو من يؤدي واجبه بحماس واخلاص وتفان قبل كل شيء.. لكن عنصر الثقافة الثورية هي التي تجعل وجوده وسلوكه ثورياً..

فالحماس والاخلاص والتفاني قد تجدها في الموظف والاستاذ والعامل في

دولة امبريالية مثلا، تتحكم في مصائر الشعوب.. فهل ان هؤلاء ثوريون؟. كلا. لأن ما ينقصهم هو طاقة ومقومات الثورية.. وهي الوعي الانساني العالمي لأمور الحياة والحضارة والسياسة. ووجود الوعي الانساني يجعل من الفرد انساناً ثورياً اينما كان..

ولنأخذ مثالا بارزا لا ينسى.. الجندي الامريكي البسيط المخلص.. الذي مات في ساحة المعركة في فيتنام او كوريا.. انه لم يكن ثورياً بل آلة بشرية بيد الامبريالية. أما لو كان واعياً مثقفاً متجاوباً مع أحداث العالم الحقيقية غير المزيفة التي زورها له نظامه الاعتدائي.. عندئذ يمكن ان يكون ثورياً وبأساليب وصور مختلفة: كعدم المشاركة الفعلية في حرب اعتدائية... او الامتناع عن التجنيد.. او التمرد ودخول السجن...

أما رجال الأمن والشرطة الامريكيين الذين امتنعوا قبل أيام عن اجبار عمال مناجم الفحم المعذبين في امريكا على العمل، فانهم ثوريون لانهم استوعبوا معنى الاضراب وساعدوا على استمراره...

تلك امثلة للثقافة الثورية في بلد نظامه اعتدائي.. فكيف تكون الحال في قطر مثل قطرنا وأمة مثل أمتنا تعيش وسط صراع حضاري عنيف ضد مختلف القوى الغاشمة الوحشية؟؟..

هنا تبرز اهمية الثقافة التوعوية التي يجب ان نتزود بها جميعاً لتتفتق أذهاننا وتتركز على الأحداث بأبعادها وأعماقها، ولنكون على دراية بكل شيء ولقراءة ما بين السطور وما خلف السطور...

اذن، فالاختصاص وحده لا يكفي.. ولا الحماس ولا الاخلاص ما لم يكونوا ممزوجين جميعاً ومعجونين بالثقافة الثورية..

... ويفرض السؤال نفسه الان بالنسبة لعنوان حديثي.. ما الفرق اذن بين الثقافة الثورية والثقافة الليبرالية؟..

الثقافة الليبرالية هي العشوائية.. او اللاهدفية. فالثقافة، كمعلومات في كتاب أو مجلة أو نشرة أو جريدة.. أو لوحة فنية هي في حد ذاتها ذات وجهين ثوري وليبرالي.. هي كالذرة التي تستخدم طاقتها للعلاج الطبي

وخدمة المجتمع في اغراض سلمية... كما وتستخدم في الحرب للدفاع او للقضاء على الآف من البشر لتمسح الحضارة اخيراً..

كذلك الثقافة: سلاح ذو حدين: إذ يمكن أن تكون هدامة ضارة.. ويمكن ان تكون مفيدة ثورية هادفة. والوسيلة الناجحة في التمييز بينهما هو التوجيه العقائدي - السياسي - والثقافي للقيادة الثورية.. وغرس قابلية النقد والفرز والتمحيص لدى الفرد...

ان الكلمة يمكن ان تكون لغماً بشكل دعاية.. ويمكن ان تكون سماً بشكل شعر معسول. وهذا هو اسلوب المؤسسات الثقافية المقنعة التي تصدر الكتب والمجلات بأقلام مشبوهة وتبدو محايدة مستقلة..

وعليه، فان ما يقع في ايدينا من مصادر للمعرفة يجب ان تكون دائماً موضع النقد والتمحيص والنقاش مع الرفقاء والزملاء ومع الذات قبل كل شيء. ودليلنا الكاشف التشخيصي لها هو التوجيه الثوري القيادي الذي تجدونه غزيراً متوفراً سهل الاقتناء مادياً ومحلياً..

وهذا هو الفرق بين الثقافة الثورية والليبرالية.. الليبرالية هي اكتساب معلومات لا على التعيين والانخداع بها والتسليم بها على علاتها.. والثقافة الثورية هي اكتساب نفس المعلومات وربما من نفس المصدر ولكن.. وأعيد قول (ولكن) بعد فرزها وتصنيفها وكشف سلبياتها للاستفادة في قلبها الى ايجابيات في التوعية والتوجيه والثقافة الجماهيرية وتطوير الذات.

وهكذا اكتشفنا مثلا بعد نكسة ٦٧ وخصوصاً بعد ثورة الـ١٧ من تموز ١٩٦٨ ان الاطلاع على الانتاج الفكري الصهيوني هو اجدى لنا من تجاهله، فبهذا النوع من التثقيف وقابلية النقد نكون قد اكتسبنا سلاحاً ثورياً في الدفاع والهجوم..

ولدى البعض - وأقولها بصراحة - حذر من النشريات والكتب الثقافية التي تقدمها لنا دور الثقافة والاعلام الوطنية لمجرد انها زهيدة الثمن او لأنها تبدو حزبية.. ولكن مجرد قراءتها يوضح لنا مدى الجهد في

اعدادها وتبسيطها واهدافها السامية..

ولكن، ونحن هنا في كلية الطب لجامعة الموصل، هل نعتبر انفسنا مثقفين بما فيه الكفاية؟؟ انني اتقدم بكلمة عتاب.. وهي أننا يجب أن نستزيد من المعرفة.. ويجب ان لا نبقى في مرحلة الاتكال وانتظار المعرفة المهضومة من الطبق الى الفم.. فظاهرة تلقي المعلومات الجاهزة كالطعام في الملعقة (أي من المحاضرات فقط) لا تزال موجودة.. واصبح الطالب الجامعي لا يكلف نفسه حتى بالنظر في القاموس للتأكد من كتابة معنى كلمة معينة أو اصطلاح جديد.. ولا يميل الى طلب مصدر جديد من المكتبة لمعرفة خلفيات موضوع مهم...

بل انني سبق وان أبديت خشيتي أن تكون كتب مجانية التعليم عذراً لدى الطلبة لعدم شراء كتب خاصة بهم ينتفعون بها بعد تخرجهم ومزاولة مهنتهم..

ان قيادة الحزب والثورة قد ارتفعت بعملية التعليم الجامعي ابعاداً هائلة.. ولكنها لم توح لأحد ان لا يكون له مكتبته الخاصة به او مكتبته الثقافية التي هي مصدر ثورته..

ان الاستاذ الجامعي الذي يطعّم المحاضرة العلمية الجافة ينتف من معلومات سياسية ثورية تقدمية.. وبأمثلة تاريخية وانسانية وتراثية لا تكفي لوحدها ان تجعل الطالب ثورياً ما لم يتلقف تلك النتف ويوسعها هو بجهوده الشخصية.. أي بالبحث عن تفاصيلها والاستزادة من مدلولاتها..

فهل المطلوب من الاستاذ ان يترك موضوع محاضرته العلمية الصرفة ويقلبها الى محاضرة ثقافية صرفة؟.. ان الكثير مستعدون لذلك.. ولكن على الطالب الثوري ان يتلقى الاشارات واللمحات ليوسعها ويتوسع فيها، وبنفس الوقت عليه ان ينتبه الى بعض التعليقات المشبوهة المغلفة بنكتة او اقصوصة... وان كان مثل هؤلاء الاساتذة معدودين ومشخصين..

لقد كان الطبيب العربي القديم «حكيماً».. والحكمة تعني الالمام بأطراف المعارف الانسانية.. كان ابن سينا طبيباً وصيدلانياً وفيلسوفاً

ورياضياً وأدبياً واجتماعياً...

ان الحكمة هي الخروج من دائرة الاختصاص الى الدائرة الثقافية الاوسع. والحكمة اليوم هي الثقافة الثورية التي اقصدها.. وهي ضرورية للطالب الجامعي في الطب والهندسة والعلوم والزراعة والبيطرة.. لاننا امام واجب واحد مقدس ذي شقين: للالمام بالمهنة.. والالمام بالمجتمع الناهض وبأهدافه في الوحدة.. والحرية.. والاشتراكية.. والثورة هي الادراك الصحيح لضمير الشعب والأمة..

أن رائدنا في اكتساب المعرفة الثورية هو النقد والحوار.. وليس التسجيل الالكتروني للمعرفة في الدماغ كما عليه الحال في الثقافة الليبرالية..

الحوار الذاتي والحوار مع الاخرين هو أساس العمل والتطور الثوري وبدونه لا تتوقد الافكار وتتطور ولا تظهر الابداعات وتندفع وتتغيّر..

الحوار مفروض علينا.. والنقاش والتمحيص هو سبيلنا الى كشف الثقافات المعادية والى الحصانة ضد السيطرة الفكرية الامبريالية - الصهيونية.. ويمكن ان يكون هذا الحوار بين الطالب واستاذه المرشد بالطبع..

وانني استشهد بقول السيد الرئيس صدام حسين عندما يقول:

«ليس هناك تناقض بين النشاط من اجل التعريف بالثورة في القطر العراقي التي هي ضمير الشعب والأمة وبين النشاط في تعريف العالم الخارجي بالأمة وبقضاياها المصيرية..

وكذلك بقوله:

«الثورة في الوقت والصيغة اللذين تعبر بهما عن ضميركم وعن طموحكم.. فانها تعبر كذلك عن ضمير وطموح أبناء الأمة العربية جمعاء...».

هذه الكواشف المنيرة تعني ان المثقف الثوري هو المؤهل لأن يكون القيادي الثوري.. وانه لا وجود لقيادي بدون رصيد من ثقافة ثورية..

والقيادة هي قيادة الذات اولا.. وقيادة افراد.. وقيادة مجموعات..

لمصلحة النضال القومي الاشتراكي.. فكيف بالقيادي المسؤول عن اعداد غفيرة من الثوريين؟؟!...

لقد بدأت قيادتنا الثورية هنا بالتثقيف من حجره الاساسي وهو التعليم.. للتعليم في محو الأمية.. والتعليم الالزامي.. وليس المقصود بالتعليم هو ان يعرف الفرد العربي كيف يسيّر اموره المعاشية او قراءة اعلانات تجارية وسينمائية.. بل ان المعنى الاعمق والابعد هو التقدم الى مرحلة الاطلاع والمعرفة والثقافة الثورية في المستقبل القريب..

والثقافة الجماهيرية ذات الاهداف البعيدة هي الثقافة المهضومة.. الثقافة التوجيهية التي تنير الطريق أمام المواطن الاعتيادي. ولكن الثقافة الجماهيرية هي جزء من الثقافة الثورية الاكبر والاعمق.

واذا كانت واجبات الشباب والطلبة والقياديين هي الاسهام في الثقافة الجماهيرية فان هذا الواجب يتطلب منهم التوسع في الثقافة الثورية الواسعة.

فالاستاذ والموجه يجب ان يعرف الكثير ليقدم تلخيصاً لمحاضرة واحدة. لذلك اصبحت الجامعة الثورية هي التي عليها واجب من التثقيف والتوجيه الجماهيري..

مهمة المثقف الثوري هي كالغوص الى اعماق البحر والتقاط الاشياء الثمينة فيه من بين الاف الاشياء المستقرة في قعره..

والثمين في مفهوم الثورة هو كل شيء يضيف الى قوة واندفاع ثورتنا العربية الوحدوية الاشتراكية.. وهكذا ترون ان مهمة الغواص خطيرة.. والثقافة الجماهيرية هي النتاج الاخير لعملية الغوص..

أن الحديث النبوي الشريف الذي يقول: «اطلبوا العلم ولو في الصين.. فان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».. هو نداء ثوري بكل معنى الثقافة الثورية. والعلم في هذا المفهوم ليس بالطبع العلوم الصرفة والتكنولوجيا.. كما يستدل من زمن الحديث الشريف قبل حوالي الف واربعمائة عام.. بل المقصود به هو «المعرفة الانسانية» بكافة اصنافها، والمعرفة في اوائل الاسلام كانت تتضمن مفاهيم الثورة لمعناها الحديث.. - وهو تغيير المجتمع..

الثقافة الليبرالية تجميع وتسجيل ليس له غاية او هدف.. اما الذي يأخذ ويهضم ويعطي ويغير فهو الذي يسهم في العملية الحضارية الثورية وفي تطوير وتغيير المجتمع.. وهو المثقف الثوري..

وأعود هنا الى قول آخر للسيد الرئيس صدام حسين عندما يقول:
«يجب ان يكون الانسان قوة فاعلة مؤثرة في مجتمعه وفي وطنه..
الاصالة اذن في الثقافة الثورية هي الاخذ.. والفرز والنقد» والتمحيص.. ثم العطاء والتوجيه والقيادة..

ومن الخطأ الفادح التصور ان مناهج التعليم الجامعي والاختصاص هي الثقافة التي نعنيها..

الثقافة ان يعرف المختص دوره الانساني في مجتمعه الانساني.. في حضارة امته.. ومن اجل وجوده العربي للوقوف امام التحديات.. وللاستمرار في الثورة..

بدون ذلك نصبح مكائن وآلات متخصصة يديرها عقل آخر.. وحذار ان يكون ذلك العقل اجنبياً مستعمراً مستغلا..

أن ثورتنا الاشتراكية الوحدوية التي تجعل من الانسان اعلى قيمة في الحياة، ترفض ان نكون آلات بيد الآخرين.. بل ثوريين في ضمير الوجود العربي.. والثورة هي في المعرفة الثورية وتطبيقاتها.

فهرست الكتاب

الموضوع	صفحة

كتب للمؤلف

الكتاب	السنة	الناشر
١- اطفالنا والثقافة الجنسية	١٩٥٦	(ترجمة) دار بيروت
٢- الاطباء.. والناس	١٩٥٩	مطبعة الهدف - الموصل
٣- الثورة الجنسية في امريكا	١٩٦٠	(ترجمة) مكتبة النهضة - بغداد
٤- الموت.. اختياراً	١٩٦٨	المكتبة العصرية - بيروت
٥- غسل الدماغ	١٩٧٠	المؤسسة اللبنانية للنشر
٦- اصول الطب النفساني	١٩٧٦و١٩٧٤	جامعة الموصل
٧- جنوح الاحداث	١٩٧٥	جامعة الموصل
٨- الحرب النفسية	١٩٧٩	وزارة الثقافة العراقية

تحت الطبع

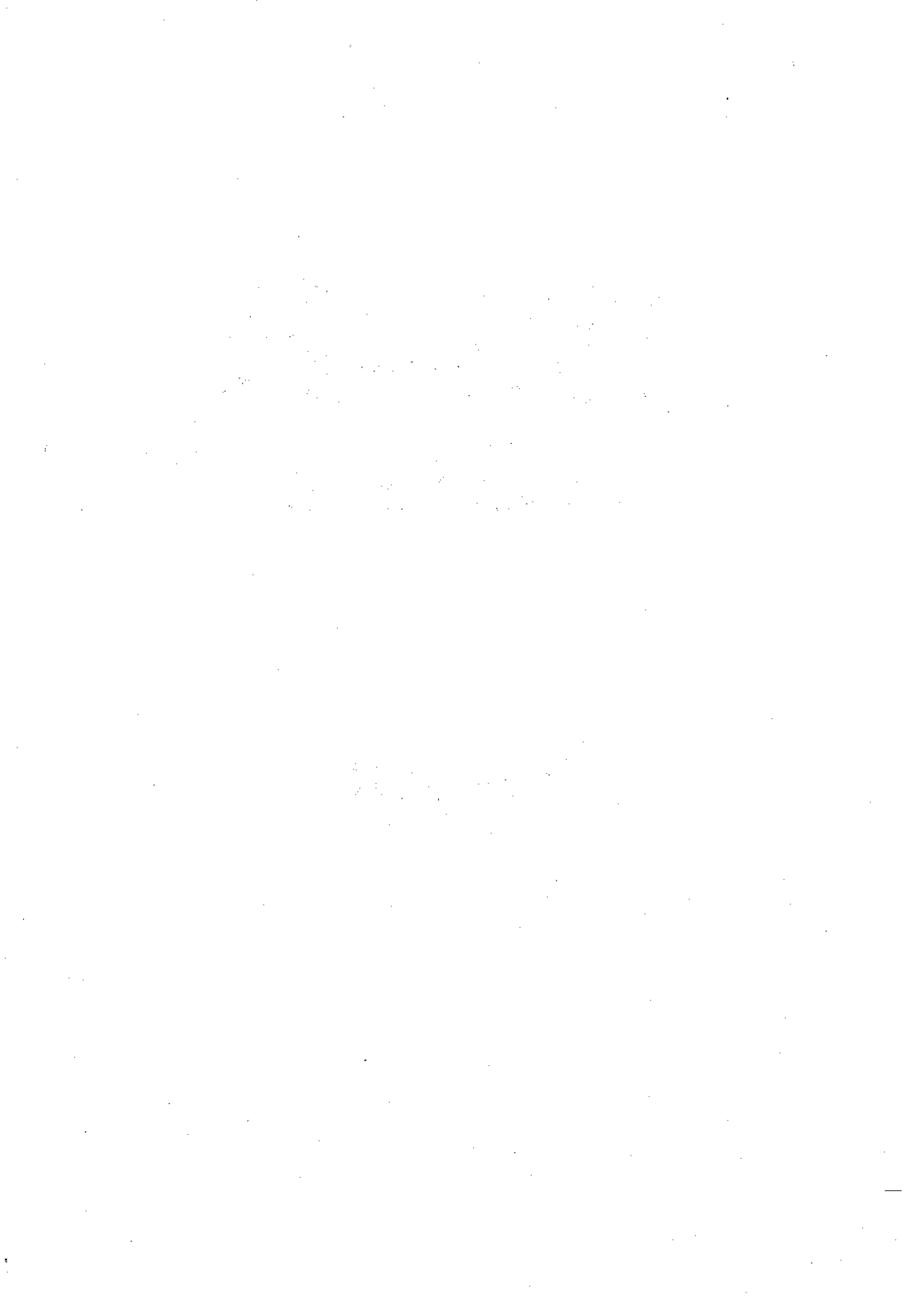
الاطباء الادباء

خطوات على قاع المحيط

رقم الايداع في المكتبة الوطنية
ببغداد
« ١٤٨٨ » لسنة ١٩٨٠

تصميم الغلاف : سلسبيل ناجي

الطبع : دار الطليعة للطباعة والنشر



الجمهورية العراقية

وزارة الثقافة والاعلام
دار الرشيد للنشر
١٩٨٠

السعر : ١٥٠ فلساً

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والإعلان